الفنون

مجلة ادبية تصدر مرة في كل شهر

رئيس تحريرها
نسيب عريضة

مدير اشغالها
راغب متراج

قيمة الاشتراك = خمسة ريالات اميركية لسنة .
وثلاثة ريالات عن نصف سنة . والدفع سلفاً .

AL-FUNOON
72 TRINITY PLACE
NEW YORK

الجزء الاول   آب ١٩١٧   السنة الثالثة

المباراة الادبية
وجوائز الفنون

ابتدأت المباراة الادبية على صفحات الفنون بعدد الاول الماضي [illegible] بعد صدور ١٢ جزءاً من تاريخ ابتدائها ، فينال جوائزها ثلاثة من [illegible]

الجائزة الاولى — مائة ريال — لصاحب المقالة الاولى [illegible]

الجائزة الثانية — ٥٠ ريالاً — لصاحب المقالة [illegible]

الجائزة الثالثة — ٢٥ ريالاً — لصاحب [illegible]

(الحكم بالجوائز) حين يصل عدد [illegible] منهم بعد قراءته ان ينتخب منه المقالة [illegible] فيصوت لها ويرسل حكمه الى ادارة [illegible] بدل الاشتراك سواء كان شهرياً او سنوياً [illegible] تعلن اسم الفائز بموجبها في العدد الذي يلي التالي [illegible] الفنون تنشر اسماء الفائزين في التصويت الشهري [illegible] لتدفع اليهم الجوائز .

(شروط المباراة) لكي يصح الحكم بالجائزة لاية مقالة او قصيدة [illegible] ان تكون مبتكرة غير منقولة عن لغة اجنبية او منشورة سابقاً ، وان تصل [illegible] الادارة تباعاً بأسرع ما يمكن وميعاد آخر ما يقبل منها ١ تموز سنة ١٩١٢ . وللادارة الحق ان ترفض نشر ما لا تراه صالحاً للنشر .

* * * * *

لا تنسَ ان تعطي صوتك كل شهر لمن تستحسن كتابته

الى القراء

منذ بضعة أشهر اخذت « الفنون » تصدر متأخرة عن ميعادها ولا سبب لذلك الا موانع مطبعية لم نستطع التغلب عليها · فنجم عن ذلك ان العدد الاخير من السنة الثانية صدر في تموز بتاريخ ايار أي متأخراً شهرين عن الميعاد · وقد توارد على الادارة رسائل المشتركين الغيُر تستفهم عن هذا التأخير وتلح في طلب الفنون في وقتها غير صابرة عنها · فرأينا ان نرسل كلمة في هذا السبيل تطميناً للقراء ·

قد صادفت الادارة في اثناء سنة الفنون الماضية من الصعوبات المطبعية ما اعجزها ولم تقدر على منعه رغم بذلها كل ما في وسعها لتلافي الامر وسد العجز واصدار كل عدد في اوانه · ولا غرو فمجلة كبيرة كالفنون يصعب اصدارها في الوقت المعين وهي تعتمد على المطابع العربية الكثيرة الاشغال في هذه الايام ·

ولما لم نر سبيلاً الى التقدم وتلافي التأخير الدائم انتهزنا فرصة انتهاء السنة الثانية من الفنون واستأذنا ادارة البريد ان تسمح لنا باصدار العدد الاول من السنة الثالثة بتاريخ آب بدلاً من حزيران · لنتمكن بذلك من تلافي التأخير واصدار كل جزء في اوانه فحصلنا على الرخصة · وها نحن نبشر القراء بانهم من الان فصاعداً سيستلمون الفنون في منتصف كل شهر ·

ولكن بدلاً من ان يكون بدء سنة الفنون في حزيران اصبح الان بدوءها في آب · وهذا لا يضر المشتركين قط · فالفنون ستصدر كل شهر مرة وسنتها اثنا عشر شهراً دون نقص ·

وها نحن نحيي القراء في بدء سنتنا الثالثة ماشين واياهم جنباً الى جنب في معارج التحري وسبل الحقيقة المؤدية الى قمم الانوار ·

« الادارة »

نرسل هذا الجزء من الفنون الى كل من يريد الاطلاع عليه ، أو من يتصل بنا عنوانه · ونأمل ممن يصلهم هذا الجزء من غير المشتركين ان يعلمونا في الحال عن رغبتهم في متابعة ارسال الفنون اليهم أو عن منعها عنهم لنكون على بصيرة · ولا نرسل لمن يطلب انموذجاً من الفنون الا جزءاً واحداً مرة واحدة لا غير ·

نعلن القراء ان ادارة تحرير المجلة لا تقسر الادباء الذين يتطوعون لمساعدتها في التحرير على اتخاذ مبادىء المجلة ونظراتها قاعدة لهم يمشون بموجبها · ولذلك فقد يحدث ان ننشر ابحاثاً شتى فيها ما يغاير آراءنا في تقدير بعض الاشياء او انتقاد بعض الامور ·

حازت الاكثرية في المباراة الادبية لعدد نيسان مقالة « الله » لجبران خليل جبران · وحازت الاكثرية في الشعر قصيدة « يا نفسي » لمخائيل نعيمه

ماذا يقولون عن الفنون

قالت جريدة الجديد الصادرة في سان باولو البرازيل

«الفنون» – قرأنا عن هذه المجلة كثيراً ولكننا لم نرها حتى هذا الاسبوع · رأيناها فشكرنا واسطة الخير الذي حمل مديرها الفاضل عَلَى مبادلتنا · شكرناه لانه متع نظرنا باتقن مجلة طبعاً ومن ارقى مجلاتنا تفكهة ونفعاً

للفنون رئيس تحرير هو نسيب عريضه يشاركه في التحرير نخبة من كتابنا كجبران والريحاني ومشرق ونعيمه وسواهم · هذا يفيد انها كبستان فيه من كل فاكهة زوجان ولذلك فقراوءها يجب ان يكونوا اجهل الناس بالملل ·

وقالت جريدة الزهراوي الصادرة في سان باولو البرازيل تحت عنوان « في مجلة الفنون » بامضاء « ام جميل »

اقلام كثيرة تحسن الكتابة ولكن قلَّ ما بينها من الاقلام الذهبية

افكار كثيرة تنقلها الصحف للعالم البعيد وتحفظها الكتب للاجيال الآتية ولكن قلَّ ما بينها الفكر الصائب ·

ريش مختلفة الالوان تجيد تصوير الحقائق والخيالات والاشكال ولكن قلَّ بينها ما يزدان به منزل الشاعر ·

رنات الاوتار تختلف تأثيراً عَلَى السامعين ولكن قلَّ بينها ما يحرك العواطف ويثير الاحزان بتوقيعه عَلَى القلوب لا عَلَى الاذان

واقل من هذا القليل هو عدم وجود قليلين بيننا من هذه الانواع معاً لاننا اعتدنا ان نكتفي بالقليل لحرمنا من الكثير

حوت مجلة الفنون النيويوركية خلاصة كل ما ذكر من هذا القليل وملخص ما يقال فيها باختصار انها – قيثارة روحية للنفوس الحزينة ومنهل عذب يجد فيه الشاعر نقاء دمعته والمصور صفاء ابتسامته والكاتب قوته والمفكر بغيته والصائغ قوالب ذهبية والموسيقى ألحاناً شجية · قد تمثلت الفنون من اشهر ناشري لوائها فهي صورة رقيقة حية لرقي الادب في الاصقاع الشمالية ·

ليت كل بيت يزدان بالفنون الجميلة فهي للعذراء كمال وبها يجد الشاب جمالاً والحزين تعزية والضعيف قوة ·

وقالت جريدة « الشرق العربي » التي تصدر بالافرنسية في باريز من مقالة عنوانها « الصحافة العرفية » بقلم الكاتب الافرنسي هولمار

ان اسرة الادب الكبرى التي جعلت سوريا والشرق مشكاة العالم العربي المنير تتزايد بصورة متواصلة وتكتمل يوماً فيوماً

وانه ليستحيل عَلَى كل ذي أدب عربي ألاَّ يعجب بالعناية والذوق اللذين تبذلها ادارة وقلم تحرير مجلة الفنون الكبرى في انتقاء مقالاتها التي تبحث احياناً في مواضيع غاية في الجرأة وفي اختيار تصاويرها الجميلة · ونستطيع القول ان هذه المجلة ليست ادنى مقاماً من المجلات الاوروبية الاكثر شهرة في بابها ·

— كتب جديدة طبع مجلة الفنون —

الاباء والبنون لخائيل نعيمه

انتهى طبع هذه الرواية الاخلاقية الانتقادية عَلَى حدة · وقائعها مأخوذة من حياتنا السورية الحقيقية · ومما تمثله هذه الرواية العراك الدائم بين الناشئة الجديدة والجيل القديم — بين الاباء والبنين ، وتأثير التعاليم الجديدة في الشبان ، وفوز الحب الطاهر المتغلب عَلَى كل صعوبة

اطلبها من ادارة الفنون — ثمنها ريال

رواية زنبقة الغور لامين الريحاني

لا نبالغ اذا قلنا ان هذه الرواية هي افضل ما صدر من المؤلفات الحديثة التي سيكون لها شأن في تاريخ الاداب العربية · بل هي عَلَى رأينا أحسن ما جاد به قلم مؤلفها الكاتب الشهير المعروف في الشرق والغرب

اطلبها من ادارة الفنون — ثمنها ريال ونصف

دمعة وابتسامة لجبران خليل جبران

مجموعة مقالات الكاتب الشهير جبران خليل جبران الذي اكتسب محبة قراء العربية واعجابهم في وقت قصير · تحتوي عَلَى ستين مقالة بين حكاية ونثر شعري شائق المواضيع · وحريٌّ بكل اديب واديبة اقتناءها ·

اطلبها من ادارة الفنون — ثمنها ريال

الى جميع ابنآء الوطن المتاجرين في البضائع البيضآء

سلام

يسرنا ان نعلن لجميع اصدقاءنا وعملاءنا الذين عرفوا مقدرتنا واستقامة معاملتنا وخبرتنا التجارية في شركة ملوك اخوان · الذي كان احدنا الياس ملوك من موءسسيها وكلانا من القائمين في ادارة اعمالها لغاية تاريخه اننا الان انشأنا محلاً فسيحاً متقناً خاصاً بنا دون سوانا في كامل الطابق الثالث من نمرو ٧٤ الى ٨٠ شارع واشنطون تحت اسم

الياس ملوك واخوه

وقد بذلنا من المال والجهد مدة الستة اشهر الماضية ما مكننا من اقتنآء اجود المواد وتحسين معاملنا القديمة التي اشتريناها من شركتنا السابقة وانشآء معامل جديدة في ايطاليا وفرنسا ومديرا تحت مناظرة احدنا الدائمة بحيث صارت وارداتنا من الفيله والكتورك والفنيس والمديرا والكلوني والفلورنتين في مقدمة الواردات من حيث جودتها واتقانها وجمال ازيائها وكمياتها واعتدال اثمانها · وقد قرنا تحسيناً كبيراً في كيفية تسعير بضائعنا وفي داخلية ادارة اشغالنا مما سيزيد في ارباح زبائننا ويكفل لنا رضاهم واقبالهم الدائم علينا · وها اننا عَلَى تمام الاستعداد لخدمتهم واقتبال طلبياتهم وتلبيتها بالحال مهما كانت ·

« الياس ملوك واخوه »

ELIAS MALLOUK & BROTHER
80 WASHINGTON STREET NEW YORK, N. Y.

ملوك اخوان

الى اصدقائهم وعملائهم

النجاح بالتحسين وليس بالبقاء على حالة واحدة

نحن نسعى بالتحسين في كل يوم وفي كل معمل من معاملنا . موءسس ورئيس هذا المحل احدنا سليم ملوك الذي اخترع ورسم جميع الرسمات المتداولة اليوم بين ايدي المواطنين من مديرا وكلوني وفيله وفنيس وغيرها لا يألو جهداً في استنباط الاصناف والرسمات الجديدة البديعة التي سيظهر اكثرها قريباً في عالم التجارة .

في مديرا

في ايطاليا

في فرنسا

وفي غيرها من اقطار العالم عيون ساهرة وعقول واعية لخدمة المصلحة وخدمتكم .

فلا تهملوا صالحكم باغفالكم هذه الامور بل داوموا مخابرتنا او زيارتنا كي لا تفوتكم الفرص السانحة ومن يعش يرى المحل الرئيسي

MALLOUK BROTHERS
47-49 WEST STREET
NEW YORK

الى تجار اميركا الجنوبية

— محل ميخائيل عريضه في نيويورك —

قد وسع دائرة اشغاله المعروفة واصبح يتعاطى تصدير البضائع الاميركية من جميع اصنافها الى سائر الانحاء

وهو مستعد

أن يقوم بخدمة كل المحال التجارية السورية في اميركا الجنوبية والوسطى وجزائرها استعداداً يرضي اصحاب البيوت الكبيرة والصغيرة التجارية

مقدرة هذا المحل المالية ،

وخبرته بالسوق الحالية ،

ومعرفته الاصناف المرغوبة ،

وتسوقه البضائع من معاملها رأساً ،

جعلته ان يحوز ثقة كثير من المحال التجارية الكبرى في اميركا الجنوبية في وقت قصير

فاكتب اليه

مستعلماً — أو مستشيراً — أو طالباً — أو مجرباً .

ولك الخيار بعد ذلك ان تعامله او تعامل سواه

MICHAEL N. ARIDA

118 W. 22nd Street New York

الزيتون في كاليفورنيا

ذوقوا واحكموا

ليس من ينكر كثرة الصعوبات التي نصادفها من جراء الحرب الاوربية بانقطاع المواد الغذائية السورية عن هذه البلاد الاميركية · ولما كنا قد اعتدنا في السابق ان نحصل عَلَى كل اصناف السمانة العربية من سوريا لم نعد نبالي بالاهتمام لايجادها هنا مع ما كنا نتحمله من الصعوبات والمصارفات في مسألة الشحن · عَلَى انه وقد حالت الظُروف في هذه الايام دون الحصول عَلَى متمنياتنا وسدَّت الطرق من كل جانب في وجوهنا فتوهم ابناء الوطن ان لا لذة تعادل لذة الواردات الوطنية وجدنا غب الامتحانات والاهتمامات التي نجريها دائماً وحباً براحة وخدمة عملائنا الكرام طريقاً لارضائهم فقد ذهب احدنا الى كاليفورنيا حيث اهتمَّ بضمانة كروم الزيتون هناك وصرنا نستورده الى محلنا الخاص فنخرج من انواعه زيتوناً اسود ومرصوصاً بزعتر ومن كان في شك فما عليه الا التجربة كما وانه عندنا جميع انواع السمانة السورية وسائر المشروبات الروحية وهذا عنواننا ·

T. K. MALOUF & CO,

79 WASHINGTON STREET, NEW YORK

ايسترن دراي كودس كمباني

يتاجون.

باصناف الدراي كودس والملبوسات وجميع البضائع الرائجة

دعائم هذا المحل التجاري الموءسس منذ سنوات هي —

الاستقامة في المعاملة

ارضاء الزبائن وتلبيتهم

الذوق في اختيار البضائع الجديدة الرائجة

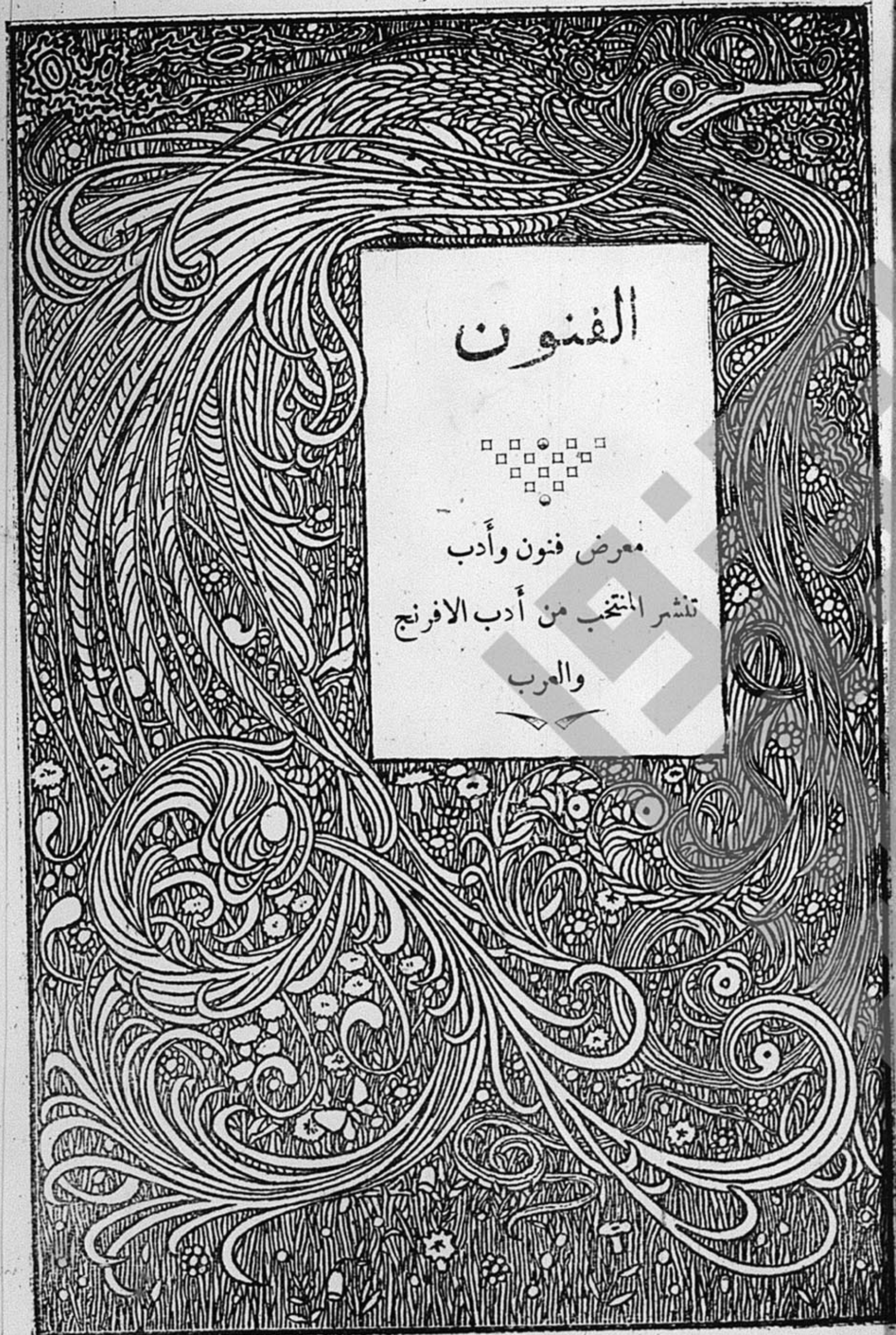
الخبرة في العمل والمسواق

كل هذه تكفل لزبائن المحل مما يعود عليهم بالربح والنجاح ويضمن لهم الراحة في التجارة اذا اتكلوا عليه في طلب ما يلزمهم من البضائع ولا شك في ان الكلام وحده لا يقنع كالتجربة · فجرّب بطلبية واحدة يتضح لك الامر · ولدى الامتحان يكرم المرء او يهان

Eastern Dry Goods Co.

1103 Fifth Avenue

Pittsburgh, Pa.



حديث وجيز

أأنت من مدخني السيكارات ؟

اذا أجبت « بنعم » فهاك سوءالاً آخر .

ما هو النوع الذي تدخنه ؟ — وقبل ان نسمع جوابك نسألك ان تسمح لنا ان نقول

اذا كنت تدخن السيكارات البرصونية فلا حاجة لشرحنا لك عنها ، وان كنت تدخن غيرها فجربها وقابل بينها وبين سواها

السيكارات البرصونية مصنوعة من التبغ التركي الخالي من الغش

انها من اقدم واشهر انواع السيكارات المعروفة ، ومدخنوها يشهدون لها بجودة وسلاسة طعم دخانها .

وانك تحصل عليها متى شئت فاطلبها تجدها لديك حالاً .

A. N Barson & Co.

40 West Street New York

محتويات الجزء



الاثم — للمصور شتوك

البنفسجة الطموحة

لجبران خليل جبران

* * * * *

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين اترابها وتتمايل فرحة بين قامات الاعشاب ·

ففي صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد ·

ففتحت البنفسجة ثغرها الازرق وقالت متنهدة — « ما اقل حظي بين الرياحين ، وما أوضع مقامي بين الازهار · فقد ابتدعتني الطبيعة صغيرة ، حقيرة ، اعيش ملتصقة باديم الأرض ولا استطيع ان ارفع قامتي نحو ازرقاق السماء أو احول وجهي نحو الشمس مثلما تفعل الورود »

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت —

« ما أغباك بين الازهار ، فانت في نعمة تجهلين قيمتها · فقد وهبتك الطبيعة

من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين · فخلِ عنكِ هذه الميول العوجاء والاماني الشريرة وكوني قنوعة بما قسم لكِ واعلمي ان من خفض جناحه يُرفع قدره ، وان من طلب المزيد وقع في النقصان »

فاجابت البنفسجة قائلة

-- « انتِ تعزيني ايتها الوردة ، لانك حاصلة على ما اتمناه ، وتغمرين حقارتي بالحكم ، لانك عظيمة · وما أمرّ مواعظ السعداء في قلوب التعساء · وما اقسى القوي اذا وقف خطيباً بين الضعفاء ! »

. . . . .

وسمعت الطبيعة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة

-- « ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة ? فقد عرفتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، ام سلبت عقلك العظمة الفارغة ? »

فاجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف

-- « ايتها الام العظيمة بجبروتها ، الهائلة بحنانها ، اضرع اليك بكل ما في قلبي من التوسل ، وما في روحي من الرجاء ان تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً »

فقالت الطبيعة -- « انتِ لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية فاذا رفعت قامتك وابدلت صورتك وجعلتك

وردة تندمين حين لا ينفع الندم » ·

فقالت البنفسجة -- « حوّلي كياني البنفسجي الى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس · ومهما يحل بي بعد ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي »

فقالت الطبيعة -- « لقد اجبت طلبك ايتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ولكن اذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من نفسك »

ومدت الطبيعة اصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة الى وردة زاهية متعالية فوق الازهار والرياحين ·

. . . . .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالاعصار ثم هاجت سواكن الوجود فابرقت وارعدت واخذت تحارب تلك الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الامطار والاهواء · فكسرت الاغصان ولوت الانصاب واقتلعت الازهار المتشامخة ولم تبقِ الا علَى الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالارض أو تختبىء بين الصخور ·

اما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر ما لم تقاسه حديقة أخرى ·

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى اصبحت ازاهرها هباءً منثوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدران الحديقة ·

. . . . .

ورفعت احدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حلّ بازهار الحديقة واشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادت رفيقاتها قائلة

— « ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تيهاً واعجاباً »

وقالت بنفسجة أخرى — « نحن نلتصق بالتراب ، ولكننا نسلم من غضب العواصف والانواء »

وقالت بنفسجة ثالثة — « نحن حقيرات الاجسام غير ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا . »

ونظرت اذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت عَلَى مقربة منها الوردة التي كانت بالامس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت اوراقها الارياح وألقتها عَلَى الاعشاب المبللة فبانت كقتيل ارداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت اوراقها ونادت رفيقاتها قائلة — « تأملنَ وانظرنَ يا بناتي ! انظرنَ الى البنفسجة التي غرّتها المطامع فتحولت الى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت الى الحضيض . ليكن هذا المشهد امثولة لكنّ . »

عندئذٍ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت يتقطع قالت

— « ألا فاسمعنَ ايتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات من العواصف والاعصار . لقد كنت بالامس مثلكنّ أجلس بين اوراقي الخضراء مكتفية بما قُسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة

واهوائها ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة ، متناهياً بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بامكاني ان اعيش نظير كنّ ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه واذهب كمن ذهب قبلي الى سكينة الموت والعدم قبل ان اعرف من اسرار الوجود ومخباته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وُجد البنفسج عَلَى سطح الارض . لقد كان بامكاني الانصراف عن المطامع والزهد في الامور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي . ولكن اصغيت في سكينة الليل فسمعت العالم الاعلى يقول لهذا العالم « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود » فتمرّدت نفسي عَلَى نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني . وما زلت اتمرد عَلَى ذاتي واشوق الى ما ليس لي حتى انقلب تمردي الى قوة فعالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة فطلبت الى الطبيعة — وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لاحلامنا الخفية — ان تحولني الى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها باصابع الميل والتشويق

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق

— اي لقد عشت ساعة كوردة . لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت الى الكون من وراء عيون الورود . وسمعت همس الاثير باذان الورود . ولمست ثنايا النور باوراق الورود . فهل بينكنّ من تستطيع ان تدعي شرفي ؟ »

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد ان يكون لهاثاً قالت

— « انا اموت الان . أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من

قبلي · اموت وانا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه · وهذا هو القصد من الحياة · هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الايام والليالي»

واطبقت الوردة اوراقها وارتعشت قليلاً ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية — ابتسامة من حققت الحياة امانيه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله ·

جبران خليل جبران



في الدرجة الثالثة

بقلم امين الريحاني

*****

«كتبت لمجلة الفنون خصيصاً»

من المشاهد التي لا انساها حياتي مشهد الجنود الافرنسية في الـ «غاردى لست» والـ «غاردى نور» · مشهد رهيب خطير طالما استوقفني معجباً · اضرمني حماسة · هزني طرباً · ضاعف فيَّ حب فرنسا والفرنسيين · فوددت ان اكون منه لا من المتفرجين · غبطت رجاله علَى ما شاهدوا · غبطتهم علَى ما نالوه من المجد · غبطتهم علَى ما خبروه وقاسوه · غبطتهم علَى حياة ابعدتهم من سفاسف الحياة وأنستهم ماديات الوجود ·

كنت اجلس في القهوة ساعات اتأمل هذا المشهد العظيم فيتغير امامي ولا يتغير · في اي وقت من النهار والليل كنت اجد في المحطة وفي ساحتها امواجاً منه زرقاء بيضاء تموج رائحة جائية ، داخلة خارجة · من ساحات القتال الى المدينة ومن المدينة الى ساحات القتال · فلا تكاد المحطة تفرغ من الجنود المسافرين حتى تمتلىء من القادمين · تأملهم ايها القارىء · منذ ساعة كانوا في الخنادق ، تحت عواصف المدافع وامطارها · دخانها لم يزل

في عيونهم . اوحال الخنادق وغبارها واوساخها لم تزل متراكمة عَلَى اثوابهم . خوذاتهم وقد علقت بحقائبهم تفصح عن معارك خاضوها . غيَّر لونها الدخان . شوهتها شظايا القنابل . منها مكسرة ، ومنها مثقبة ، ومنها ما أمست اثراً من الاثار يحتفظ به الجندي كما يحتفظ باوحال الخنادق واوساخها

وتأمل العائدين الى ساحات القتال بعد فرصة سبعة ايام ، فان اثوابهم وحقائبهم لم تزل هي هي . لونها الحقيقي يحجبه الغبار . غيَّرته الاوحال . فان الازرق اصبح رمادياً والاحمر بنياً مائلاً الى الذهب العتيق . أتذكر لون البحر ابان العواصف ؟ ازرقاق يتماوج بين لون الغيوم ولون الافق المدلهم . هذا هو لون امواج المجد التي كنت اشاهدها في تلك المحطة في باريس

تباركت أرض لم تزل تنبت مثل هؤلاء الرجال . تباركت روح لم تزل تولد الشجاعة والبسالة في ابناء بلادها . قدست والله غبارهم . قدست الاوحال المتراكمة عَلَى جوانبهم . فانهم ابناء فرنسا الحقيقيين . هم مصدر مجدها الباهر . هم اركان عزها وصولتها واقتدارها . هم العاملون في تخليد ذكرها ومدنيتها . هم حماة روحها الجليلة التي انارت العالم وحررت الشعوب . هؤلاء هم الـ « پوالو » ابطال المارن والسوم وفردون . بل ابطال الحرية وحقوق الانسان .

وانه ليدهشك منهم سيماء وجوههم . لا الغم ولا الابتهاج ، لا القلق ولا الضجر ، لا الخمود ولا الحماسة تبدو في تلاميحها ، بل هناك بادرة غريبة مبهمة بعيدة كالافق ، سرها عميق ، هادئة باردة ساكنة . هي الحجاب الذي

ألبستهم الحرب . هي بادرة نشأت في الخنادق فاشربت ناراً وطليت دخاناً . ترى الجندي منهم فلا تصدق انه بطل . تنظر الى عينيه فتنكر وجود الحماسة في صدره . خطواته ثقيلة كحقائبه . نظراته هادئة كنفسه . قلما يبتسم وقلما يتكلم . كأن ما تشاهده منه انما هي ذاته الهيولية . اما ذاته المعنوية الروحية فكأنها لم تزل في الخنادق . او كأن شبح الحرب لم يزل ملازماً له مستولياً عليه .

ادهشني امر هؤلاء الجنود وحيَّرني . ولكني تيقنت حقاً صدق الآية « المرء باصغريه » بل باحد اصغريه في مثل هذه الحال — بقلبه فقط . تباركت هذه القلوب الكبيرة من ابنائك ايتها الامة المجيدة

عَلَى انني حزنت لما شاهدتهم يوماً يركبون القطار في عربات الدرجة الثالثة منه . الدرجة الثالثة لمجد فرنسا . الدرجة الثالثة لابطال العالم . انه لحيف والله . ولكنها الضرورة تقضي بمثل ذا الحيف احياناً . وودت مراراً ان اشاهد هذا الجندي البسيط في الدرجة الاولى يزينها ، يشرفها بغباره واوحاله . وما الرياش تفترشها السيادة او الوجاهة في هذه الايام العصيبة غير ترف ذميم . ولعمري ان ما يفترشه الجندي ليليق بالملوك . والدرجة الثالثة في القطار اصبحت الدرجة الممتازة

لذلك سافرت يوم تركت باريس في الدرجة الثالثة علني اقترب من هؤلاء الابطال فاشاركهم ولو يوماً واحداً مشقة السفر . وهناك امر آخر حبب الي الدرجة الثالثة . لما كنت اشاهد الجنود في الـ « غاردىلست » كنت

اتشوق الى استلاع اخبارهم — الى معرفة حقيقة امرهم — الى الدخول الى مكنونات صدورهم — الى كشف اعماق سرهم · رأيت الضابط يمرح في اسواق باريس فراقني منه انيق الظاهر ، وبهاء الطلعة ، وجميل الثوب ، وسيماء العزم والحزم والنشاط · ولكني قلت ان ذلك من نتائج التدريب والنظام · اما داخلهم فقد يكون مضطرباً متزعزعاً · وقد لا يكون · ورأيت الجنود المشاة ال « پوالو » — الجنود الذين تدور عليهم رحى الحرب ، ابناء الخنادق والنار ، رائحين جائين من ساحات القتال الى بيوتهم ومن بيوتهم الى ساحات القتال ، كأنهم من عمال المدنية ، لا تهزهم بهجة الفرصة ولا يستفزهم الشوق الى مشاهدة الآل والخلان ، ويدخلون المحطة عائدين الى جحيم الحرب كأنهم عائدون الى اشغالهم العادية او الى بيوتهم · ومع ذلك فقد خامرني بعض الريب مما كنت اشاهده · فقلت قد يكون ظاهرهم الهادىء السكوت نتيجة ما دوخت الحرب من داخل انفسهم

حدثت بعضهم فكادت تكون لغتهم منحصرة بنعم ولا · كأن اصوات المدافع وامطار القنابل علمتهم السكوت وافقدتهم عادة الحديث · فقلت في نفسي علهم يخشون التبسط والافصاح · بل تيقنت ان المرء في المدينة ايام الحرب، جندياً كان او مدنياً · يجمجم الكلام ويطليه · فيخالط اراءه شيء مما توجبه الحكمة والاحكام من التحفظ والتقية · اجل فان لطفنا مثلاً في المدن لا يخلو من المصانعة واراءنا لا تسلم من الضغط · وطالما تاقت نفسي الى مجالسة الجندي في زاوية بعيدة من دوائر الاحكام ، من

مراكز السياسة ؛ من ضوضاء الاسواق ، من همس القهاوي ؛ من ظل الجواسيس! وهذه فرصة اغتنمتها — فرصة في الدرجة الثالثة نادرة

ناهيك بما كان يهزني من الشوق الى الاقتراب من هوءلاء الاشاوس الاباسل · وددت الاقتراب من اوحالهم ، من غبارهم ، من روائحهم ، من اوساخهم ، بل من روحهم الحقيقية الخالدة الواقفة اليوم مجردة من اباطيل المجد وخزعبلاته ؛ المتشقة سيف الحق والحرية · تلك الروح طي ذاك الثوب الازرق البائخ البالي انما هي هي التي ألبست فرنسا اليوم حلة من المجد لا يبليها الزمان ·

ركبت القطار من ال « غاردورساي » قاصداً اسبانيا · وقد ادهش قصدي بعض الاصحاب · فتفننوا في التذكير والمداعبة ··· السفر في هذه الايام جنون · كأنك لا تطالع الجرائد · كأنك جاهل حقيقة الحال · لا فحم · ولا عمال — لا بخار ولا كهرباء · قد يقف القطار بك في بادية لا ظل فيها ولا ماء · ومحجتك اسبانيا · قد تصل سالماً يا صاح لو كان لك هجين تمتطيه · فلم اكترث بمثل ذا التثبيط والمداعبة · يممت المحطة باسم الله ووزير الشحن والنقل · وعددت وانا على الرصيف عربات القطار فكان منها اربع من الدرجتين الاولى والثانية وعشر من الدرجة الثالثة · فاعجبني من الشركة هذا النظام والاحتياط وسررت ان اكون من الاكثرية في صف المسافرين · والاكثرية هذه الايام ممن وصفت من الجنود ·

ستة منهم رفاقي في العربة · احدهم جزائري او افرنسي في الزي التونسي

الذي ذكرني بجيش لبنان المنكوب التاعس ، والبقيــة في الثوب البسيط الأزرق ، الاغرش ، الاسحم ، او بالحري الملوّن بلون الخنادق . وبين هوءلاء كهل تجاوز الاربعين سناً ، عمليق كبير الهامة ، شديد البنية ، كث اللحية وجهه كالجلد اذ بلّ في الماء ونشر ساعة في الشمس ، وعيناه تحت حاجبين رهيبين جمرتان متقدتان . اما صوته فيا لله منه . لم يزل يرن صداه في اذني . ولكنه لطيف المحيا انيسها . تتسنخ ابتسامته غضباً تمثل في جفنيه ، وتزيل ما قد يعتريك من التقزز والاشمئزاز من مجرّد استماع صوته الخشن الجهوري . تمثلته يصيح بال « بوش » فيرجفون خوفاً ورعباً . وما فتئت ان علمت انه كثير المزاح ، فصيح العبارة انيقها ، تتدفق الالفاظ من فمه كجدول من الماء بين الصخور ، لها ضجة وللضجة في صدره صدى غريب .

جلس هذا العمليق تجاهي وجلس الى جانبه شاب امرد ، اشقر اللون ازرق العين ، دقيق البنية ، لطيف الصوت والمزاج . واخذ يداعبه كأن له عليه دالة الصحبة فوق دالة السلاح

-- لم يتغير عليك شيء حتى الان . هذه العربات مثل الخنادق . تكتف واطو رجليك وقل الشكر للوزراء

-- ولكنها خنادق متزعزعة يا بني . فها قد بدأت تتحرك

-- كما يتحرّك ال « بوش » او الفيل

-- لا بأس يا بني . فرصة يقضيها مثلك في القطار خير من فرصة في المدينة

-- او في باريس اليوم وقد خلت من امثالك

-- ومن الفحم والحطب

فقاطع حديثهما الجزائري قائلاً -- وما احلى شمس افريقيا اليوم !

فاجابه ابو اللحية -- أمّا انا فقد نسيت الشمس واكاد انكر وجهها اذ أطلّ .

ثم اشعل غليونه وبصق عَلَى الارض . (نحن في الدرجة الثالثة ايها القارىء والخنادق تنسي الجندي ما تعوّده من اداب التمدين)

اما الجزائري فاخرج لفائف من جيبه ووزّع منها عَلَى رفاقه ثم اشعل لفافة ووقف امام الشباك يستنشق الهواء .

-- ما قولك ؟ أتنتهي الحرب في الصيف المقبل ؟

-- لو سألتني متى تنتهي حياتي لسهل عليّ الجواب

-- وماذا يهم متى تنتهي الحرب ما زال وزراوءنا بخير

-- سمعت ان الوزارة متزعزعة وان وزير الحربية ....

الكلام للجندي الامرد الذي قاطعه العمليق ابو اللحية هامساً كلمة في اذنه . فنظر الشاب اليّ -- الى الغريب -- وسكت .

التجسس ! الحذر من التجسس ! عادة عودتناها هذه الحرب فكادت تنسي ملكة فينا كلنا .

وقد علمت بعد ان تعرفنا وتآخينا انه ظنني تركياً اتجسس للالمان وكان في نيته ان يتبعني حيث نزلت ليتحقق امري -- ليتجسسني . ولكننا شربنا في تولوز كأساً عَلَى ذكر خطأه ضاحكين

بعدنا من دوائر الحرب السياسية ورحاها العقلية فانقشع الجو قليلاً فتنفست الصعداء . كل ساعة مرت ابعدت الجنود اميالاً من ساحات القتال . وكلما اسعنّا جنوباً احسست بارتياح منهم للحديث . وما لبث الامرد ان تحقق امري تقبل مني لفافة تركية بل مصرية بل اميركية منتحلة اسماً عربيا . واجاب متلطفاً علىَ سوءال سألته . اخبرني انه من فيلق الاغراب الشهير . ولما علم انني سوري لبناني هتف هتاف الدهشة والاستحسان ونهض من مكانه فجلس الى جانبي يحدثني بلهجة لا تحفظ فيها ولا تردد .

— بلادكم جميلة . الاموسيو . لم ازرهـا . ولكني قرأت لامرتين وشاتوبريان . وكان لي رفيق في الفيلق سوري طالما حدثني عنها وشوّقني اليها . السوريون شجعان . واعرف منهم من نال صليب الحرب . زمائي لا انساهم . قد حاربنا جنباً الى جنب في شمباين ، وفي السوم ، وفي فردون . ونمنا في الخنادق جنباً الى جنب . ومنهم صديق لي عزيز

مدّ اذ ذاك يده الى جيبه فاخرج اوراقاً بحث فيها عن صورة ارانيها — صورته وجندي آخر معه .

— هذا هو صديقي اللبناني . اسمه سليم — سليم .. ولكنا قلما نذكر الاسماء الحقيقية في الخنادق . كنا ندعوه علي بابا مازحين . وكان خفيف الروح ، لطيف المعشر ، حلو المزاج ، ذكي الفوءاد ، ينظم الشعر ويتغنى به . وكم من ليلة في فترات القتال كنت ورفاقي نجلس في الخندق علىَ القش فيقص علي بابا علينا قصصاً شبيهة بالف ليلة وليلة ويغني لنا الاغاني العربية

فيطربنا ويضحكنا كثيراً . وكان يخبرنا بما هو جارٍ اليوم في بلادكم فتساقط الدموع من عينيه . مسكينة سوريا . مسكين لبنان . كنا نستمع حديثه اسفين غاضبين فنود لو كنا هناك لنكسر رأس التركي ، لنشفي غلينا منه ، لنمحو من الارض ذكره واثره .... مسكين علي بابا ! مسكين سليم ! يا لالي يا لالي ! لم ازل اذكر هذا النغم الذي كان يتغنى به في سكـون الليل وظلماته .

ثم مال محدثي بوجهه الى رفاقه وطفق يسرد هذه القصة . وكنت قد سمعت كثيرا من مثلها في باريس وتحققت شجاعة السوري في ساحة القتال تحت نار المدافع . وقرأت في الجرائد كثيراً من وصف غرائب الصدف التي خلصت من الموت كثيرين من الجنود المستهترين . ولكن علي بابا — الحديث للجندي .

— في ليلة مقمرة مثلجة . سكنت هنيهة فيها مدافع العدو شعرنا بشيء من الضجر والملل فعقدنا الحلقة ونادينا علي بابا . فلم يجب . خرجت ابحث عنه فوجدته جالساً علىَ كيس من الرمل خارج الخندق تحت الثلج ورأسه بين يديه . فاقتربت منه فاذا به يبكي . سألته الخبر فقال انه وصله كتاب من آله في لبنان ينبىء ان الوفاً من السكان هناك ماتوا جوعاً وان الوفاً من المنكوبين يهيمون في الحقول والاودية يلتقطون الاعشاب ليقتاتوا بها . فحاولنا ان نعزيه بما شاهده كل منا من اصناف الموت حولنا . والبعض اساء مداعبته . فاستشاط سليم غيظاً وطفق يلعن الاتراك والـ « بوش » ويندب حظ بلاده .

وفي تلك الآونة استأنفت المدافع هولها فجاءَ ضابطنا يقول

— اريد منكم متطوعاً · فكان سليم اول من لبى الدعوة · كأنه يئس من الحياة فاستهتر · او كأنه اراد ان يطفي نار تغيظه في انتقامه من ال «بوش» خرج سليم تواً ليقوم بواجبه · خرج كالمجنون · فتتبعناه بنظرنا من خلال الاسيجة وهو يدب عَلَى الثلج خارج الخندق في ضوء القمر · دبّ حتى حاجز الشريط فنهض اذ ذاك قليلاً وبين هو يجتازه ···»

كمل الجندي عبارته باشارة افصح من الكلام · ثم قال

— وما هذا بغريب · كثيرون مثله اكلوا الشريط · كثيرون مثله ألبسوا اكليلاً من الشوك · جاء الضابط ثانية يسألنا متطوعاً آخر · فتقدم منا اثنان كنت انا منهما · فراح الاول يحمل اوامر القيادة وخرجت انا مسرعاً لانقذ صديقي علي بابا · دببت الى المكان الذي سقط فيه فلم اجده هناك · بحثت ثم بحثت عبثاً وعدت حائراً الى الخندق · وكانت اذ ذاك مدافع ال « بوش » تمطرنا وابلاً من النار فقطعت الرجآء من عود السوري وتأسفت كثيراً عليه · ولكن بعد ساعة او اقل سمعت صوتاً خارج الخندق يناديني باسمي · عرفت الصوت وخرجت مسرعاً · فاذا بشبح عَلَى بعد بضعة امتار استوى واقفاً وخطا بضع خطوات وسقط ثانية عَلَى الثلج · سمعته يقهقه ورأيته يلوح بشيء في يده · فهرولت اليه فاذا به كما ظننت علي بابا وبيده رأس الماني هالني منظره في ضوء القمر ··· « ابصق بوجهه · رأس تركياً · رأس غليوم · قطعته بيدي بموسي · خذه ابصق بوجهه ···» وكان يئن

من جروح في زنده و كتفه دامية وهو ينطق بمثل هذا الكلام ويهذي كالمجنون او المحموم · حملته عَلَى ظهري وهو قابض عَلَى الرأس بلحيته يلوح به واسرعت عائداً الى الخندق ولكن قبل ان اصل احسست برصاصة اصابتني بل اصابت حملي · اصابت علي بابا في ظهره فاخترقت قلبه · مسكين علي بابا · خلصني من الموت موسيو لولاه عَلَى ظهري لاصابتني تلك الرصاصة حيث اصابته · هذه صدف الحرب وتقاديرها · دفناه في الصباح متأسفين كثيراً عليه · وقلما تأخذنا عاطفة الاسف والحزن ونحن تحت هطل المدافع ولهيب النار · ولكننا تأسفنا كثيراً عَلَى علي بابا · واني لاحزن موسيو كلما فكرت به · وذاك المشهد الهائل وهو قابض عَلَى رأس الالماني بلحيته يلوح به في ضوء القمر وتلك الضحكة المرعبة ضحكته لا انساها حيــاتي · ولا انسى صديقي السوري ··· ساحتفظ بهذه الصورة موسيو · كان سليم خفيف الروح لطيف المعشر · و كان شجاعاً · حبذا لو كان لي موسيو ان اضحي حياتي من اجل سوريا كما ضحى علي بابا حياته من اجل فرنسا ·



فلسفة الكائنات

﴿٤﴾

المـادة

* * * * *

المادة او الهيولى · قال طوم بلير · يلوح لي ان المادة اسهل مواضيع النظر واوضحها ·

فليست مثل « انا » موضوعاً له باطن وظاهر ، ولا كالفضاء لا يُعرف له حد ولا اجزاء ، ولا كالزمان وهو موضوع معنوي لا يلمس ، بل هي موضوع ظاهر محسوس ملموس

القلم الذي اكتب به هو مادة ، والحبر والورق كذلك · ويدي التي تحرك القلم مادة ·

وكذلك صندوق البريد الذي اضع فيه الرسالة والباخرة التي تحمل رسالتي الى اميركا · والمجلة التي تنشر فيها مقالتي الخ الخ··

فالمادة مفهومة ، ودرسها لذيذ ·

قال الطبيعيون -- ان للمادة ثلاث حالات -- الغازية كالهواء ، والسائلة كالماء ، والجمدية كالتراب

وكون المادة في احدى هذه الحالات الثلاث متوقف على درجة الحرارة

فان زادت درجة الحرارة سال الجامد كالرصاص مثلاً ، وان زادت اكثر تبخر السائل ، كالماء في درجة الغليان فانه يتحول الى البخار ··

وبعكس ذلك اذا نقصت درجة الحرارة سال الغاز كما يتحول البخار في طبقات الجو الباردة الى ماء مطر يراق على الارض · وان نقصت درجة الحرارة اكثر جمد السائل · فيتحول الماء جليداً · وهلم جراً

· · · · · ·

بهذا الاعتبار درس المادة لذيذ مألوف

ولكن اذا اتينا الى الماهيات والحدود تعرقلت مسالكنا ووقعنا في حيص بيص والتبس علينا الامر كما سترى

قال المعلم -- ما هي المادة يا طوم ؟

يا للهول -- انني اخاف كلمة « ما هي » ولا خوف الموت · لقد هممت بالجواب ولكن يد المعلم على العصا هي التي تخيفني · على انني تشجعت وقلت له -- المادة مفهومة يا معلمي · الطاولة امامك مادة ، وانا مادة ؛ وانت مادة · فنظر الي شزراً وقال -- والحمار مادة والكلب مادة · فرجفت وقلت -- حماك الله يا مولاي · اجل الله مولاي الاستاذ قدراً · انا مادة وكل شيء مادة · فابتسم الاستاذ ورضي بعض الرضاء · وقال -- طيب · فهمنا ما هو مادة وما ليس مادة · ولكن مادية الشيء لا تعرف المادة فعليك ان تحددها · « حدد » ! ! لست حداداً ولا ابن حداد · انا طوم بلير · ولكن معلمي يروم التعريف او الحد المنطيقي « الجامع المانع » يعني الذي يعرف الموضوع

المطلوب ويخرج من تعريفه كل ما سواه . ولقد خطر في بالي عَلَى حداثتي ان اكشف عن فساد حدودهم وابين نقصها سلباً وايجاباً . اعني انها غير جامعة ولا مانعة .

قلت — وهل يطلب استاذي التحديد الفلسفي ؟

قال الاستاذ — كيف لا وهو شغلنا

قلت — يقول الكتاب « ان المادة او الهيولى هي ما ندركه باحدى الحواس الخمس »

قال — وما قولك بهذا الحد ؟ قلت — فاسد وناقص

قال — وكيف ذلك ؟ . قلت — اليك البيان

فقهقه الاستاذ شأن المقلدين وقال — انه الوحيد الذي اجمع عليه الطبيعيون والفلاسفة من عهد افلاطون . فماذا عساك ان تعمل ايها المتفلسف بلير ...

قلت — عفواً يا مولاي . قلت او قال الكتاب « ان المادة ما يدرك باحدى الحواس » ولي عَلَى ذلك اعتراضات —

(١) السمع — اننا نسمع الاصوات فهل الصوت مادة ؟

قال الاستاذ — لا بل هو ارتجاج في دقائق المادة .

(٢) النظر — اننا ندرك النور بالنظر . فهل النور مادة ؟

فبهت الاستاذ وترك العصا من يده

(٣) الشم — اننا نشم الروائح . او ندركها بالشم فهل الرائحة مادة ؟

(٤) الذوق — وبالذوق ندرك الطعوم فهل الطعم مادة ؟

(٥) اللمس — وبه نشعر بالحرارة . فهل الحرارة مادة ؟

فجعل المعلم يفرك جبينه ونسي الكتاب امامه . ثم رفع رأسه وقال — هل هذا الكل يا بلير ؟ قلت — لا ، ولكنه ، وان يكن بعضاً من الكل فهو كافٍ لبيان مرادي .

قال الاستاذ — ان النور عَلَى رأي نيوتن مادة تنبعث من الجسم المنير . وقال محدثو الفلاسفة انه حركة في الاثير وبذلك ابطلوا رأي نيوتن الشيخ الجليل .

قلت — وما هو الاثير يا معلمي ؟

قال — الاثير عَلَى رأي الطبيعيين مادة ثقيلة جداً تملأ الفضاء وتصل بين الكواكب تسبح فيها الاجرام كما تسبح الاسماك في الاوقيانوسات . ويذهب الحكماء الى ان تأثير الجرم المنير في هذا الاثير هو انه ينشىء فيه تموجات تشبه ما تحدثه العصا الملقاة عَلَى وجه الماء .

— وهل الاثير مادة يا سيدي ؟

— لا شك في هذا . قال الاستاذ ذلك ونسي ان الهوة وراءه عميقة

— وهل تدركه الحواس ؟ . فبهت ولم يحر جواباً .

ثم اعقبت عَلَى ذلك بقولي — وما الدليل عَلَى وجوده ؟

قال — لا دليل قاطع لكنه ضروري لتعليل بعض الظواهر الجوية او الطبيعية لذلك افترض الطبيعيون وجوده . ولم ينكر ذلك احد منهم

موقف تأمل ·

اشياء تدركها الحواس كالاصوات والروائح وهي عَلَى رأيهم ليست بمادة وما لا تدركه الحواس ولا دليل عَلَى وجوده وهو مادة او اصل المادة

فما العمل اذاً يا استاذي ؟ لقد فسد الحد الموضوع سلباً وايجاباً فكان غير جامع ولا مانع · فسكت المعلم · وقال — يا بلير انت فيلسوف صغير ، ولكن لا يفوتك ان الاعتراض سهل ولكن الاثبات عسير

الحواس تدرك المادة متصورة او متخذة صورة ، ولكنها لا تدرك المادة قبل تصورها ·

قال — وانت تعلم ان اتخاذ المادة صورة من الصور يتوقف كل التوقف عَلَى درجة الحرارة ·

— فما هي الحرارة ؟ أهي رسول الله العلي بعث بها لكي تصور العالمين ؟ او هي ظاهر من ظواهر المادة ·

قال — الثاني · قلت — أهي علة الحركة او نتيجتها ؟

قال — الاثنان · هي علة الحركة لانها تبخر الماء وتحرك الهواء · ونتيجتها لان كلنا يعلم ان الحركة تولد حرارة

— وما هي الحركة ؟ · أهي رسول المادة او ظاهرة من ظواهرها ؟

قال — ان الحركة والسكون من الحالات المتعاقبة عَلَى المادة ·

فالمادة اما متحركة او ساكنة ·

— فما الذي يحدث الحركة ويلاشيها ؟ وهل الحركة ازلية او حادثة ؟

— المادة قابلة التحرك · واذا تركت لذاتها لزمت الاستمرار · والاستمرار هو اثبت اوصاف المادة اذا تركت لذاتها · مثلاً — اذا تركنا القلم والورق عَلَى الطاولة بجانب الدواة ظل كل في مكانه الى الابد : فلا القلم يكتب ولا الورق ينقل او يحمل اثراً

واذا لم يأخذ طوم بلير هذه المذكورات عن الطاولة بقيت الى الابد ·

فالمادة بالطبع ساكنة · وتستمر عَلَى سكونها ·

فماذا حركها ؟ هي مسألة المسائل

وقال — ان الاثير هو المادة او الهيولى قبل اتخاذها صورة فهل الاثير ساكن او متحرك ؟

واذا قيل متحرك فكيف يتحرك ؟ أينتقل وهو يملأ الفراغ ؟ او يقبل التجزئة وهو غير متناهٍ ؟

وكيف تصوروه قبل ان يتخذ صورة مادية ؟

· · · · ·

قال موسى في بدء التكوين ما نصه — « في البدء خلق الله السموات والارض · »

فما معنى البدء وما المراد بالخلق ؟

هل اراد بالبدء بدء الاثير او الشروع في تصويره ؟

اعني هل المراد بالبدء بدء الوجود او بدء التنظيم ؟

وهل اراد بالخلق ابداع الهيولى من العدم او الشروع في تصويرها ؟

فان كان الاثير ازلياً فهو غير مخلوق — استغفر الله !

وهل الزمان والمكان والمادة غير مخلوقة وكلها بحكم الازلية ؟

هنا نخشى معلم اصول الايمان · لان ذاك لا يرضى بما قد يرضي معلم الطبيعيات ·

وهو أصرم من استاذ الطبيعيات واشد شراسة مع انه متصل بالآلهة الذين من شأنهم اللطف والرقة

فان ذاك — معلم الفلسفة — يكتفي بعصاه الطويلة فيوءلمنا لحظة ويدعنا وشأننا · اما هذا فبعد اللطم والرفس يستمطر علينا غضب الالهة حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ ·

ولا يعلق ذلك عَلَى الذنوب والكبائر التي تضر بالافراد والجماعات بل يكفي لفتح ابواب جهنم كلمة فلسفية او حركة فكرية قد يكون منشأها الاخلاص وغرضها البحث عن الحق

فماذا نعمل ؟ نريد ان نفهم وهذا هو الكل ·

ولكن اساتذتنا لا يفهموننا ، ولا يدعوننا نفهم ·

معلم اصول الايمان — يقول ان الله خالق كل شيء من العدم · ومن لا يذهب مذهبه فهو كافر · والكافر الى النار

ولكن من قال قوله ولو بدون فهم — تقليداً محضاً — فهو موءمن زكي · فما اصغر الفرق بين الكفر والايمان !

فهل الايمان وهم ، او مظهر من مظاهر الرياء ؟

دعنا من اللاهوت وعالم الروحانيات · ولنحصر النظر في المادة ·

هب اننا كفرنا ولم نخش عصا معلم الروحانيات ، ولا رهبنا وعيده ، ولم نعبأ بناره التي لا تطفأ ودوده الذي لا يموت ، فان المشاكل لم تحل بالكفر بل زادت تعقداً وتشوشاً

فالمسألة ليست مسألة كفر وايمان ، بل مسألة تطلب الفهم · فهل ادراك ماهية المادة ممكن ؟

قال العلماء او بالحري الفلاسفة في ماهية المادة قولان متعاكسان

الاول — انها حلقات زوبعية في جسم الاثير المفروض

الثاني — انها الفرغات في تلك الحلقات

فعلى المذهب الاول — المادة هي تجمع الاثير

وعَلَى الثاني — المادة هي عدم الاثير · فيكون الاثير في الفضاء كل شيء الا المادة · وعَلَى ذلك يكون مادة ولا مادة في وقت واحد

· · · · ·

قال كاتب هذه السطور

جمعتني الاقدار بالدكتور شبلي شميل الطبيعي السوري الشهير والكافر او الجاحد الصريح بعد طويل الانتظار · وكان يصحبني في زيارته الاستاذ خ · خ · كاتب الاهرام يومئذٍ وكان ذلك الاجتماع في بيت الدكتور ليلاً في بدء سنة ١٨٠٨ ولدى قعودنا مال الدكتور وهو ضخم الجثة واستند الى خوان نحيف الى جانبه فانهارت دعائم الخوان وسقط الدكتور الضخم

باجمعه · فقلت له ضاحكاً — أرأيت يا دكتور مصير من يستند الى المادة ؟

فاجاب فوراً — هذا مصير من لا يستند الى المادة · اردت بذلك ان وهن مستنده علة سقوطه · فسلم هو بالمبدأ وبنى عليه ان قوة المستند المادي تحول دون السقوط · وكل ذلك ظاهر · الا ان الفيلسوف لاحت عليه ملامح الغضب عَلَى رغم كوننا ضيوفه · فدلني ذلك عَلَى شيء من اخلاقه

. . . . .

ثم انتقلنا من المزاح الى الجد فقلت له

— يا حضرة الفيلسوف ارغب في الاستفادة · قال — اليك ذلك

قلت — لنفرض ان الرأي المادي قد ثبت وانه يعلل تكوّن العالمين

قال — انه ثابت دون ادنى ريب · قلت — كلا يا مولاي انه لم يثبت ، بل قد عدل عنه الماديون الى المذهب النواتي · عَلَى ان ذلك ليس الغرض من مساجلتنا · فانا احب المذهب السديمي واعظ به كما اعظ بالانجيل

فلنفرض جدلاً انه كان في البدء السديم العظيم البسيط اللطيف جداً يملأ الفراغ عَلَى رحبه او يشغل قسماً كبيراً منه

— افرض كما تشاء فلست بمعارض لك

— وان السديم الاول المفروض جعل يدور عَلَى محوره فظهرت بذلك الحرارة والنور ·

قال شميل — نعم

قلت — فلي عليك سؤالان مهمان · قال — وما هما · قلت — الاول —

من اين هذا السديم ؟ كيف وجد ؟

الثاني — ماذا حرّكه ؟

اجاب شميل بجدٍ ووقار لم ارهما فيه كل حياته

— « يا ابني حسبنا ان نقف هنا ، فاننا ليس لنا طاقة عَلَى التوصل الى ما وراء ذلك » ·

فدهشت لقوله · وهو ما كنت ارمي اليه · فاجبته فوراً — اذاً يا دكتور « اللاأدرية اعقل فلسفة »

فانتبه سريعاً كمن اخذ عَلَى غرة منه · وشعر انه بهذا الاعتراف قد نقض كل كتاباته · فقال — انه لا يجدر بالعالم ان يكون متذبذباً ، بل عليه ان يكون ذا مبدأ يدافع عنه ·

واذ كنت قد حصلت منه عَلَى ما اريد وسبرت غوره اكتفيت بذلك وجعلت احاسنه مجاسنة طوم بلير استاذه الغضوب ·

ورأيت ان الدكتور شميل عند اول مأزق عرج عن ماديته الى الفلسفة النظرية التي قضى العمر في سبابها وهجائها ·

عَلَى انني ارى أن قوله منتهى الحكمة وغاية في السداد

« يا ابني حسبنا أن نقف هنا »

والخلاصة ان طوم بلير — وكلنا ذلك الانسان — بقي في امر المادة حائراً لا يدري ·

اولاً ما هي · مع انه يلامسها وتلامسه كل الحياة

ثانياً — ولا متى وجدت

ثالثاً — ولا كيف وجدت

رابعاً — ولا لماذا وجدت

خامساً — ولا ما هو السر الذي يفعل فيها ابتداءً

سادساً — ولا الى متى تبقى · وهل هي ابدية او فانية

هذا كله وهو فيلسوف

لقد مرّ بنا اربعة مواضيع من الصق الموضوعات بنا واقربها الى وجداننا (١) انا · (٢) الفضاء الذي انا فيه (٣) الزمان الذي اعيش فيه (٤) المادة التي جسدي مكوّن منها · ولم اعرف واحداً مما ذكر

فأولاً — لم اعرف ما هو ذلك الشيء فيّ الذي يقول « انا »

وثانياً — لم اعرف ما هو الفراغ

وثالثاً — لم اعرف ما هو الزمان

ورابعاً — لم اعرف ما هي المادة

فانا لا ادري بالرغم من طموحي الى الاستطلاع والاستكشاف · امام هذه المسائل يقف اعظم فيلسوف واحقر حمار · وربما كان الفرق الوحيد بينهما هو ان كليهما « لا ادري » ولكنّ اعظم فيلسوف يدري انه لا يدري وان الحمار لا يدري انه لا يدري ·

وقد يستحمر بعض المتفلسفين فيزعم انه يدري وبذلك يزيد عَلَى كونه لا يدري انه لا يدري

فما اكثر الحمير في هذه الدنيا

واشدهم حمرنة الفلاسفة المستحمرون ·

الاسكندرية « حنا خباز »

في كتاب الحياة هنا وهنالك اوراق ملصوقة لا نستطيع قراءتها فنضطر ان نحزر مضمونها حزراً بالهام القلب

. . . . .

فكرة واحدة قد تظهر للمرء في ضوء القمر غير ما تظهره في ضوء الشمس

من مفكرات روبنسون

صفحة مطوية من حياة الاستاذ بومون

﴿ معربة بقلم الدكتور رشيد تقي الدين ﴾

★★★★★

المكان نيويورك — المدينة العظمى — في الجهة الشرقية منها والزمان عام ١٨٨٨

وليم ج . روبنسون صاحب صيدلية حقيرة في ذلك العهد ، والطبيب الاختصاصي للمسالك البولية اليوم يكتب الرواية التالية وقد جرت حوادثها في ذلك العام وابتدىء بتمثيل الفصل الاول منها في الصيدلية المذكورة

. . . . .

في عشية يوم من ايام آب . جلس روبنسون حيال مكتبه جلسة ذي ملل من الحياة . المبيع كان قليلاً جداً في ذلك النهار ، والحر كان شديداً لا يطاق ، والصيدلية صغيرة فلم يكن لها مراوح كهربائية — كل هذه الامور تزيد في شكوى الرجل وتجلب له الهم . الا ان صاحبنا اراد أن يُفرج عنه كربته فتناول من عَلَى الجدار امامه كتاباً لفيكتور هيغو وموضوعه « الرجل الذي يضحك » وابتدأ يُقلبه صفحةً صفحةً .

روبنسون كان مغرماً بشاعر فرنسا الاكبر . فاذا ابتدأ بقراءة « الميزرابل»

مثلاً نسي التراكيب الكيماوية — واذا طالع كتاباً آخر لفيكتور هيغو — ترك الكينا والكفايين ولم يبالِ ببيع الملح الانكليزي وشراب يودير الحديد وصبغة الكافور المركب

بدأ بالقراءة وبقي مدة نسي فيها انه لوحده . وخيل له انه يحادث مؤلف « الميزرابل » ولم يرفع رأسه الا ليمسح عرقه عن جبينه فاذا هو كذلك وقد وقف امامه شبح من الانس اقرب الى الجن منه الى بني آدم . بلى . وقف امامه رجل طويل القامة ذو لحية كثيفة عليه ثياب رثة الا ان وجهه وما في صدره يدلان عَلَى ان الرجل لم يكن فقيراً الا بالمال .

وكم تكون تحت الثياب الرثة اجسام نظيفة . وكم تكون تحت الثياب الحريرية انفس شريرة . خارج المرء لا يدل عَلَى ما داخله . ربَّ رجلٍ يمشي في الافنيو الخامس ، وعصاه في يده يلاعبها يمنةً ويسرةً ، ورأسه شامخ يناطح السحاب وفي اصابعه الزمرد والالماس والياقوت لا يحوي في رأسه ذرةً مما ندعوه دماغاً مفكراً . وربَّ متشرد صعلوك ذي ثياب بالية قديمة يتخطى في شوارع « الباوري » او في شوارع نيويورك بين الافنيو الاول والافنيو الثاني افضل بكثير ممن يحترمهم الكثيرون . وربَّ مخلوق امتلأت جيبه بالذهب فبقي رأسه خاوياً ، وربَّ معدمٍ نظفت جيبه ونظفت سيرته ، وربَّ كوخٍ حقير تلعب الارياح فيه يضم تحت سقفه انفساً شريفة ، وربَّ قصور باذخة تضم داخل جدرانها انفساً لا همَّ لاصحابها غير الاكل والشرب والنوم .

تلك كانت افكار المستر روبنسون وقد تفرّس في وجه الرجل الذي وقف امامه غريباً بهيئته وربما بلغته ، ذا لحية طويلة غير مهندمة وشعر كثيف تحت قبعة قديمة ·

منظر الرجل يدل لاول وهلة انه من غير رجال العلم او الفلسفة · الا انك اذا حدقت النظر فيه فقد تعتقد بوجود الاثنين · ماذا يريد هذا الغريب ؟ وماذا يبتغيه من الدخول الى الصيدلية ؟ أبه داء عياء حمله عَلَى الاستدواء ؟ عند هذه الافتكارات طرح روبنسون الكتاب جانباً وخاطب الغريب قائلاً

— بماذا اقدر أن اخدمك يا رجل

— هل لك ان تجري ما اريد ؟

— وماذا تريده مني ؟

وهنا ساد السكون هنيهة من الزمان تمكن الصيدلي في خلالها من درس ملامح الرجل الذي كان جامداً يتفرّس بحنان في وجه روبنسون كأنه يريد قضاء حاجة وهو يخاف ان يفشل · الا انه بعد سكوت طويل قال

— هل لك يا سيدي ان تهبني او ان تعطيني عشر قمحات مورفين · ليس لديّ سنت واحد الا اني اعدك بشرفي أني ادفع لك الثمن بعد اسبوعين ·
وهنا اغرورقت عيناه بالدمع وخاطب الصيدلي بالافرنسية اذ كان قد رأى الكتاب الافرنسي عَلَى الطاولة قائلاً ·

— يجب أن احصل عَلَى المورفين ليس حباً بالانتحار ولكني لا استطيع الحياة بدونه · وقد مرّ عليّ يومان وانا امشي في شوارع المدينة متنقلاً

من صيدلية الى اخرى وكنت أطرَد من كلها كأني قد اسأت الى احد · اجل مرّ عليّ يومان وانا بلا اكل اذ لا دراهم في جيبي ، والغريب في مدينتكم يموت ان لم يكن في جيبه مال · فارجو منك يا سيدي ان ترحمني ولا تخيب طلبي فان لم تهبني المورفين أمت لا محالة · قل عني ما شئت · وانظر اليّ بالعين التي تريدها فلست أعرف مني بنفسي ولست اقدر عَلَى احتقاري من نفسي ·

وهنا بكى الغريب كالطفل اذا ضربته أمه · او كالام تُبلى بموت وحيدها

الرجل مصاب بداء عادة المورفين · الداء الذي انتشر في اميركا في السنوات العشر الاخيرة انتشاراً زائداً · الداء الذي يقتل المئات والالوف · الداء الذي لا دواء له · الداء الذي يصيب الناس من كل الطبقات بل هو متفشٍ في الطبقة العليا اكثر من تفشيه في الطبقة الفقيرة · الداء الذي تحاربه حكومة هذه البلاد محاربتها للهواء الاصفر او للطاعون او لفالج الاطفال · الداء الذي اضطرّ المجلس التشريعي لولاية نيويورك الى سن قانون مخصوص يحظر فيه عَلَى الصيادلة بيع الدواء الممزوج بالمورفين وليس ذلك فقط بل الدواء الذي يخالطه اي جزء من اجزاء الافيون بغير تذكرة رسمية من الطبيب ·

لم يكن روبنسون ذا قلب كالصخر ليرفض طلب الرجل · ولم يكن بالامر ما يوءاخذ عليه حيث لم تكن الشريعة تقضي بتلك الايام عدم بيع المورفين فقام الى الخزانة وتناول زجاجة الدواء ووزن كمية صغيرة والتفت

الى الرجل الغريب فقال

-- لك ما تريد يا رجل على شرط واحد وهو أن تدخل معي الغرفة الثانية فتأكل شيئاً فلقد ظهر لي انك على مبلغ عظيم من الجوع ·

وهنا دخل الاثنان واكلا ولم يصبر ابو المورفين ريثما يزدرد اللقمة الاخيرة حتى تناول الورقة الملفوف بها المورفين فاخذ منها جرعة كما يبتلع الكلب الجائع لقمة الخبز يلتقطها من يد معلمه وقبل ان ودّع مريض المورفين صديقه الصيدلي طلب هذا اليه أن يزوره من وقت لآخر وانصرف شاكراً مبتسماً بعد ان نقده الصيدلي ريالاً سائلاً ان يصرفه في سبيل حلق لحيته ومضى

. . . . .

من هو هذا الرجل الغريب المصاب بمرض عادة المورفين ؟ ومن هو هذا الذي اذا تفرّس فيه الانسان لحظةً يخيل له انه من ذوي العلم او من كبار الادباء وان لم يظهر ادبه على ثيابه او علمه في قبعته البالية ؟ بل من هو هذا الذي يتكلم الافرنسية كابناء السين والانكليزية كابناء التاميز ؟ أهو متشرد معتوه كما ظنه روبنسون عندما وقعت عينه عليه ؟ ام هو بشر مثلنا خانه الحظ في دهره فاورثه عادةً انقلبت عليه مرضاً · ولماذا هو يستعمل المورفين وما هي اللذة من استعمال المورفين ؟ كل هذه الامور قد تشوق القارىء معرفتها · فما هي ومن هو ؟

بومون اسمه ، وسويسرا وطنه ، وتعليم الكيمياء حرفته · بين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين عمره · الافرنسية والانكليزية والالمانية

والايطالية هي اللغات التي يحسنها · توفي والده وهو لا يزال بالمهد فاعتنت به والدته وعكفت على تعليمه فخرج من كلية لوزان حاملاً لقب دكتور بالفلسفة · كان قديراً بجميع العلوم الا انه كان يميل بالاكثر للكيمياء فاتقنها وانقطع لها · فدعته الكلية وكلفته ان يعلمها فتعين اولاً مساعداً لاستاذ الكيمياء باجرة اذا ذكرت امام اساتذة الاميركان ابتسموا وصمتوا الا ان سويسرا غير اميركا وصاحبنا بومون غير طمّاع فكان يرضى بالقليل باول الامر ·

وحدث ان بومون تعرّف الى فتاة احبها قلبه لاول مرة · نظرها واحبته هي فتعاهدا وتواعدا — هو اعجب بحسنها وادبها وهي اعجبت باخلاقه وادبه — هي كانت ترى فيه العريس الذي تتمناه الفتاة وهو كان يرى بها الفتاة التي يحلم بها الرجل ومضت الايام والحب ينمو في قلبيهما الا ان الدهر عدو المحبين · فبعد مضي عام على تعارف الحبيبين حدث لبومون ما جعله ان يترك وظيفته · فقد كان رئيسه يحسده لاجتماع قلوب التلامذة عليه · وكان بومون بالوقت نفسه طلب زيادة على معاشه فلم يُجب طلبه وعرف جيداً ان زواجه بحبيبته قد يكون ضرباً من المستحيل اذا هو بقي على قدر قليل من المال · فاختلف مع رئيسه فترك الكلية · كل هذا هين نوعاً لو لم تؤنبه حبيبته على ذلك · فقد انحت باللائمة عليه ونسبت له الطيش والحدة فغضب منها ونفر ومنعه زهوه ان يعود لاسترضائها فغادر الكلية وانقطع عن حبيبته فلم تعد لوزان جميلة في عينيه فحلف ان لا يبقى

تحت سمائها واقسم ان لا يعود اليها الا اذا كان ذا ثروة ٠ الا ان وجود والدته العجوز وعلمه بعدم رضاها عن سفره وعجزه عن استصحابها معه الى حيث كان مما زاد لوعته ٠ — غير انه صمم النية عَلَى السفر مهما حدث واول بلاد خطرت بباله اميركا ٠ البلاد التي اذا قصدها الغريب لا يعود منها الا وهو محمل ذهباً ٠ — هكذا كان يسمع عن اميركا —وهكذا كان الناس يقولون عن العالم الجديد — وبومون كان ممن سمع فصدق

ودعته والدته العجوز باكية ناحبة ٠ —هي قالت له انها غير راجية لقاءه فيما بعد — اما هو فقال لها — طيبي نفساً فسأعود اليك بعد مضي ثلاث سنين — هكذا كل مهاجر يقول لامه ٠ هو بكى عند رؤيته امه تبكي وركب البحر قاصداً بلاد الذهب وفي صدره آمال اوسع من البحر ٠

وصلت الباخرة الى نيويورك ٠ نزل ركاب الدرجة الثالثة الى الجزيرة — جهنم المهاجرين وبومون كان بينهم لانه لم يتمكن من السفر بالدرجة الاولى او الثانية ٠ فاندهش كثيراً من معاملة مأموري الجزيرة للركاب ومن معاملة البوليس ، وخصوصاً لان الاستاذ بومون قادم من بلاد ديموقراطية بالفعل وليس بالاسم ٠ فانقبضت نفسه وكاد يُغير اعتقاده ببلاد العم سام وحدثته نفسه بالرجوع الى وطنه ٠ الا انه خاف من العار ٠ هكذا يفعل اكثر المهاجرين ٠ فصبر ريثما ينزل الى المدينة ٠ وهنا حدث له ما كان سبباً لانقباض نفسه ٠ فقد كان ايان يسير بالشوارع او حيث يذهب يرى الناس يتطلعون اليه ٠ من هو هذا الغريب ؟ هكذا هم يفتكرون ٠ وكان بومون عَلَى غير الزي

الاميركي في لبسه وهيئته — شعره طويل كشعور الشعراء في الاجيال المتوسطة وكان مرخياً عذاره ٠ واما قبعته فكانت عَلَى غير المعهود في اميركا كل هذه الامور جعلت الناس ينظرون اليه نظرة الاستهزاء ٠ وفي يوم من الايام اذ كان ماراً في شوارع المدينة للجهة الشرقية لحق به رهط من الصبيان يضحكون منه ومن لحيته الطويلة فظنهم لاول وهلة يطلبون حسنة الا ان ظنه لم يكن في محله لانه فهم بعدئذٍ انهم يضحكون منه او هم ينصحون له كي يحلق لحيته ٠ ونيويورك المدينة الوحيدة التي يطلب اهلها من الغريب فيها ان يتزيا زيهم ويلبس لبسهم ٠ واميركا هي البلاد الوحيدة في العالم التي ينظر اهلها الى الغريب عنهم كأنه غريب ٠ اما في سويسرا فقد تبقى النهار بطوله تتنقل من هنا الى هناك باللباس الذي تريده فلا احد يضحك منك ولا احد ينظر اليك ٠ كل هذا سوَّد قلب الاستاذ بومون فكان يبكي احياناً كثيرة ٠

اعلن بومون في احدى الجرائد رغبته في الحصول عَلَى مركز معلم في احدى المدارس ٠ انما لم يكن له ما يدعونه الواسطة ٠ والواسطة والتعارف صفتان لازمتان لمن يطلب مساعدة في اميركا ٠ المقدرة في العلم ، والمقدرة بالفن ، والبراعة بالصناعة امور لا تنفع صاحبها عند طلبه شغلاً في مكتب او في معمل ٠ الواسطة وحدها تنفع ٠ وبومون لم تكن له واسطة بل اعتمد عَلَى نفسه لانه غريب في هذه البلاد ٠ مرَّ عليه اكثر من خمسة اشهر وهو بغير شغل في مدينة الاشغال ٠ وكان في مساء يوم ماراً في الشارع الثالث

والعشرين يريد ان يجتاز برودواي للجهة الثانية فصدمته سيارة اوقعته على الارض فلم يعِ الا وهو في مستشفى بلفيو حيث بقي ستة اشهر . فحصه الاطباء فحصاً مدققاً . كسر في عظام رأسه . كسر في ساقه . رضوض هنا وهناك في جسمه . وكان يتألم جداً الا ان الطبيب الموكول اليه امره – وهو شاب متخرج جديداً من المدرسة كان يحقنه بالمورفين لتخفيف الالم – هكذا كان يقول له – والممرضات اللطيفات المزاج كنَّ لا يقوينَ على احتمال صوت الاوجاع لذلك كنَّ يهرعن الى حقنة المورفين كلما سمعن الاستاذ بومون يئن من الالم . وبعد مرور ستة اشهر في المستشفى خرج منه وهو يعرج قليلاً . ووجد نفسه مصاباً بمرض عادة المورفين فكان يبقي منه كمية في جيبه يحتفظ عليها ليطلبها حين يشاء . ولم تكن صورة والدته المسكينة تفارق عينيه منذ افاق من غيبوبته على اثر ذلك الحادث . كتبت له مراراً دون ان تأخذ جواباً . واخيراً ماتت المسكينة من فرط جزعها على وحيدها ويوم بلغه موتها حدثته نفسه ان يقضي على حياته بالانتحار . لم يعد يطيق البقاء في اميركا . نيويورك وما فيها ومن فيها كانت غيمة سوداء على عينيه . والفكرة في الرجوع الى سويسرا بعد موت والدته وخسارة حبيبته وفقدان مركزه في كلية لوزان زادت في سويدائه . فكان المورفين تعزية له . ووجد به سلوى عن هذه الامور .

. . . . .

الى هنا انتهت الرواية التي كتبها المستر روبنسون عن بومون . الا ان الدور

الذي لعبه الصيدلي لم يكن قد انتهى بعد والى القارىء ماذا قال روبنسون عن نفسه .

وكنت الصديق الوحيد للاستاذ بومون في اميركا . وصممت النية على ان ابذل ما في وسعي لاخفف عنه ما به من التعاسة . فعرفت ان اميركا ليست بالبلاد الصالحة لرجل كبومون . وعرفت ان رجوعه الى سويسرا افضل وسيلة لاحيائه . وعرفت ان المادموازل ج . هي الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع ان يبعث بنفسه الحياة . فكتبت اليها كتاباً دون ان اخبر الاستاذ واخبرتها باختصار عما اصاب الرجل الذي يعبدها وسألتها فيما اذا كان من واسطة في ارجاعه لبلاده وافهمتها انها هي وحدها تستطيع كل شيء . وبعد مضي ثلاثة اسابيع ورد عليَّ كتاب منها وكتاب ضمنه للاستاذ بومون وحوالة مالية بخمسمائة فرنك . ولا انسى الساعة التي استلم بها الكتاب فقد امتقع لونه وصار يرتجف كالغصن تلاعبه الريح الا اني لا انسى ايضاً ان صديقي الاستاذ بومون منذ تلك الساعة انقلب الى رجل جديد . وبعد اسبوع من وصول الكتاب كنت وبومون على ظهر الباخرة اودعه . وعندما تركته رأيت دمعتين تساقطتا على خديه . وكان كأنه يقول لي – لا اقدر على مكافأتك ولا على نسيانك . ولا بدَّ لي من القول ان عادة المورفين كانت قد خفت معه الى درجة انه كان ينقطع عنه اربعة او خمسة ايام . وكان يحارب هذه العادة بكل ما بقي له من القوة القديمة وبكل ما هبط عليه من القوة الجديدة على اثر ورود الكتاب اليه من حبيبته المادموازل ج .

وجاءني كتاب من بومون يفيدني به عن وصوله الى وطنه · وبقيت المكاتبة بيننا ريثما تركت الصيدلية وعدت الى درس الطب فانشغلت عن بومون لاشتغالي بما انا فيه من الدرس · واذكر انه في يوم نيلي شهادتي الطبية وردتني منه ورقة دعوة الى حضور حفلة اكليله عَلَى المداموازل ج · التي كانت سبب سعادته ورسالة يخبرني بها ان استاذ الكيمياء في كلية لوزان توفي وتعين هو الاستاذ الاكبر للفن · ومضت الاعوام فنسيت بومون وبومون نسيني — وقد يحدث ذلك حتى بين الاصدقاء الذين نعتقد باننا لا نستطيع نسيانهم

وحدثتني نفسي منذ عامين ان ازور اوربا لاتوسع في درس الامراض البولية في فيانا وبرلين · وبعد ان بقيت في البلدين عاماً كاملاً جئت سويسرا · ومررت ببرن وجنيف ولوزان · فذكرت صديقي القديم الذي عرفته في نيويورك منذ اكثر من ثمانية عشر عاماً · الا انه لم يخطر ببالي ان اتكلف البحث عنه لاني كنت قد نسيت عنوانه بعد مرور هذا الزمن · وبينما كنت صاعداً قمة برنزرن روثرن التي تعلو ٧٨٠٠ قدم عن سطح البحر ابصرت رهطاً من السواح -- لم ابالِ بهم لولا ان كبيرهم كان يهمس في اذن امرأة متوسطة بالعمر بعض كلمات ثم ينظر اليَّ · وبعد حين تقدم نحوي وقال

-- اسمح لي يا سيدي ان اسألك اذا كنت الدكتور وليم روبنسون

-- نعم ومن تكون انت ؟

-- هل انت الدكتور روبنسون من نيويورك ؟

-- نعم · ومن انت · فلا اظن ان احداً يعرفني بهذه البلاد

-- انت تعرف بومون مريض المورفين · أليس كذلك ؟

-- وهل انت هو ؟

-- نعم انا هو الاستاذ بومون يا دكتور روبنسون · وهذه هي امرأتي · وها هم اولادي ·

واني اؤكد للقارىء انه ما مرَّ ولن يمر عليَّ بعمري ألطف من تلك الصدفة وبقيت في ضيافة صديقي القديم اكثر من اسبوع خلته احسن اسبوع في حياتي · واظن ان ذكره لا يغيب عن مخيلتي الى الابد · هذا هو الاستاذ بومون يضحك منه ابناء نيويورك منذ عشرين سنة وهذه هي قصة ذلك المتشرد الذي جاءني بذلك المساء لصيدليتي يطلب ان اعطيه عشر قمحات من المورفين · وهو ذلك الرجل الذي صدمته سيارة في السوق الثالث والعشرين واراد احد اطباء مستشفى بلفيو ان يبتر ساقه لولا ان حسن طالعه وقف بينه وبين ذلك الدكتور الجراح ·



كذا كان . وكذا سوف يكون .

❋ من الاساطير القديمة ❋

للكاتب الروسي او . ل . دوز

١

.... ووقف أسباط اسرائيل الاثنا عشر مرتاعين مضطربين وقد أسقط في أيديهم .

امامهم البحر .

بحر ثائر أبداً لا تكبح جماحه شكيمة يتلاطم متدفقاً محاولاً التماص من شواطئه قاذفاً امواجه الهائلة نحو السماء . وما بين تلك الامواج الرهيبة هاوية عميقة مدلهمة تحدق بالاسرائيليين الهاربين وقد فغرت فاها الواسع البعيد القرار .

ووراءهم العدو يجد في اثرهم ليفتك بهم

ها قد اتصل صهيل أفراسه بالاذان . ها قد أخذت الارض ترتج من وقع حوافرها . وها قد امتلأ الهواء بقعقعة السلاح وهتاف فرح المصريين فوقف الاسباط الاثنا عشر وقد اعتراهم الوجل والروع واصبحوا لا يدرون ما يصنعون .

أمامهم البحر

ووراءهم — العبودية

فالى اين يتوجهون

٢

فتقدم شيوخ السبطين الاكبرين — روساء يهوذا ورأوبين هؤلاء الشيوخ حازوا الزعامة منذ كانوا في مصر اذ رفعهم المصريون وسوّدوهم عَلَى قومهم لحكمتهم وتقدمهم في السن ومهارتهم في السياسة واستطاعتهم ان يخدموا فرعون وشعب اسرائيل في وقت واحد . هؤلاء كانوا يدبرون امور شعبهم بحكمة يا لها من حكمة ! فقد كانوا لا يألون جهداً في حمل الشبان الاسرائيليين الارقاء من شعبهم المستعبد عَلَى العمل بجد دون توانٍ في خدمة المصريين لكي يزداد عدد الآجر الذي يصنعونه وترتفع الاهرام أعلى من ذي قبل فيتكرم المصريون بكلمة ثناء ينطقونها بحق عبيدهم الاسرائيليين قائلين .

— لله درهم من عبيد صالحين مخلصين في الخدمة

أجل . لاجتهاد هؤلاء الشيوخ وحنكتهم وتقدمهم في السن أحبهم المصريون وخافهم الاسرائيليون .

والان تقدم هؤلاء الشيوخ الحازمون المكللون بوقار الشيب الى الامام وقالوا

— يجب عَلَى العقل ان يأتي لنجدة المرء حيث لا تنفع الايدي . واذا

جف ماء إقدام الشباب تبدو مكانه حكمة الشيوخ . ألا اسمع يا اسرائيل !
ان فرعون لقاس ، ولكن البحر اشد قساوة منه . وان قيود المصريين لثقيلة ، ولكن امواج هذا الخضم أثقل منها . وان السوط ليدمي ظهر العبد بلا شفقة ، ولكن حيوانات البحر وآفاته لافتك منه

فلنختر أهون الويلات . دعونا نخابر المصريين بشروط التسليم ...

فسُمع في الشعب صوت ضعيف فاه معترضاً بهذه الكلمات

-- ولكنهم سيقتلونا على كل حال .

فاجاب الشيوخ -- شيوخ رأوبين ويهوذا على الفور بلهجة التأكيد

-- كلا . لن يقتلونا . سنتضرع اليهم ان يهبونا الحياة ويعفوا عنا . وسنعدهم ان نكفر عن الماضي ونمحو ذنوبنا بالعمل الشاق في خدمتهم . سنشتري رضى المصريين بخضوعنا وصبرنا فلن يفتكوا بنا ...

فاضطرب الشعب ...

٣

وسرى بغتة في القوم أنين تصاعد فوق الجماعة . وكان ذلك موسى يخاطب قومه .

بسط ذلك النبي والقائد العظيم يده وقال

-- يا شعبي ! يا شعب اسرائيل ! لقد سلطت السماء على الانسان عقابين هما الموت والعبودية . اما الموت فانه ينهي الحياة في لحظة . واما العبودية

فانها تمتص الحياة قطرة فقطرة طيلة سنين عديدة .

الموت يمر دون ألم . اما العبودية فتسلط على ضحيتها الاماً لا تحتمل في كل لحظة تنقضي .

فمالي أراكم وقوفاً امام وجه الموت وقد أعتراكم الوجل ؟ أتحاولون الهرب من المنية الى مخالب العبودية ؟ ألا اسرعوا نحو البحر !

خيرٌ لنا ان يرى الاعداء جثثنا طافية على وجه الماء من ان يرونا ساجدين صاغرين عند اقدامهم . خيرٌ لنا ان تغمر الامواج اجسامنا من ان يغمرنا العار والذل اذ نرى شيوخنا سجداً على ارجل الاعداء يكنسون بلحاهم عن احذية الطغاة .

الى البحر ! فقد تحدث عجيبة

تقصف وتزبد مرنمة نشيد الاقدام والشجاعة ·

سكن العنصر الهائج امام جنون الشجعان المقدمين وخضع العنصر المتمرد لارادة الابطال المتحمسين ·

وسار الشبان الى الامام · الاحداث في بني جنسهم · والاصاغر في قومهم ساروا يخططون للشعب الذليل المستعبد طريقاً الى الحرية ·

ووراءهم في الذنب — في موءخرة القوم سار الشيوخ يتبعونهم — شيوخ رأوبين ويهوذا ·

٥



سوق عكاظ

★ ★ ★

في هذا الباب ننشر مختارات الشعر العربي الحديث التي ننتخبها من الدواوين الجديدة والصحف والمجموعات · وقصدنا بذلك ان نطلع القراء على افضل ماتنتجه قريحة شعرائنا المعاصرين في العالمين القديم والجديد ·

بنت لبنان

*****

الليلة القمراء ترخي النقاب   بالله دع نفسي وذكراها

. . . . . .

يا نازحاً طال عليه الزمن   هلا تعللت بذكر الوطن
فتبسم النفس لكل المحن   كنجمة تطلع فوق الهضاب
في سفح لبنان رعيناها

يا ارض لبنان فقدناك   وفي ليالينا بكيناك
لله ما اطيب ذكراك   في ليلة غارقة في الضباب
او روضة تعبق رياها

اذا من العود شجانا الرنين   اذا من الموج سمعنا الانين
اذا من الروضة طال الحنين   نذرف دمعاً هان في الاغتراب
ونكسر الكأس وننساها

ما زال هذا القلب حنانا   من الهوى والذكر ملآنا
يصبو الى شاطىء لبنانا   ويذكر الحب وعهد الشباب
يا حبذا ارض فقدناها

ما انس تلك الارض الا فتاة   جبينها يطلع نور الحياة

وقلبها مثل جناح القطاة   بسمتها حلت امر العذاب
والهمتني الشعر عيناها

اذكرها بسامة الثغر   في الدار مثل الفرخ في الوكر
صياحة محلولة الشعر   سوءالها حلو واحلى الجواب
وكل نفس تشتهي فاها

اذكرها طوراً تهز السرير   وتارة تلهي اخاها الصغير
الى ذراعي امها تستطير   وان غشا وجه ابيها اكتئاب
انساه كل الهم مرآها

اذكرها في شهر ايار   تكلل العذراء بالغار
وبين ازهار وانوار   تبدو ملاكاً في بياض الثياب
وتسمع العذراء شكواها

ان سمعت رنات اجراس   حنت الى انغام قداس
او رمقتها اعين الناس   ابصرتها في خجل واضطراب
فاحمر كالرمان خداها

اذكرها في ليلة العيد   وشعرها مثل العناقيد
وعقدها يسطع في الجيد   والجيد يحكي زنبقات رطاب
من غيضة الوادي قطفناها

تدبر البيت مع الام   كأنها الزهرة في الكم
وتعشق النزهة في الكرم   حتى تغيب الشمس خلف الحجاب

ونجمة البيت محياها

اذكرها تحت ظلال الشجر   اذكرها تحت ضياء القمر
اذكرها تتلو امام الصور   ما علمتها امها في الكتاب

وزينة العذراء تقواها

يا بنت لبنان احييك   تحية تحيي مغانيك
لا زلت سلوى بين اهليك   كزهرة روّى ثراها السحاب

والصبح بالانوار حياها

اذا سمعت الموج هدّارا   والبلبل النازح صفّارا
وشاقك المركب سيّارا   حيي فتى سار يخوض العباب

وفوق هذي الارض قد تاها

يا حبذا الحمراء والغابتان   يا حبذا الصفصاف والسنديان
الذكر لا يمحوه طول الزمان   والنفس لا تعلم كيف الذهاب

ما بين ذكراها وبلواها

(الانفاس الملتهبة)   « الوليد بن طعمة »

. . . .

يا صاح

يا صاح كم تفاحةٍ غضةٍ   يحملها في الروض غصن رطيب
ناضجة ترتج في جوها   مثل ارتجاج الشمس عند المغيب

حرّضك الوجد على قطفها   لما غفا الواشي ونام الرقيب
لكن لامرٍ انت ادرى به   رجعت عنها رجعة المستريب
تقول للنفس الطموح اقصري   ما سرقة التفاح شأن الاريب

. . . . .

وربّ صفراء كلون الضحى   ينفي بها أهل الكروب الكروب
دارت على الشرب بها غادة   كانها ظبي الكناس الربيب
في طرفك الساجي هيام بها   وبين احشائك شوق مذيب
لكن لامرٍ انت ادرى به   رجعت عنها رجعة المستريب
تقول للنفس الطموح اقصري   ما غر بالصهباء عقل لبيب
اياكِ اياكِ واكوابها   اخت الخنا هذه وام الذنوب

. . . . .

وكم شفاهٍ ارجوانية   كأنها مخضوبة باللهيب
ساعدك الدهر على لثمها   ورشف ما خلف اللهيب العجيب
لكن لامرٍ انت ادرى به   رجعت عنها رجعة المستريب
تعنف القلب على غيه   وتعذل العين التي لا تنيب
قتلت نزعاتك في مهدها   ولم تطع في الحب حتى الحبيب

. . . . .

بي والان لما انجاب عنك الصبى   ولاح في المفرق ثلج المشيب
واستسلم القلب كما استسلمت   نفسك لليأس المخوف الرهيب

اراك للحسرة تبكي كما   يبكي على النائي الغريب الغريب
تود لو ان الصبى عائد   هيهات قد مرّ الزمان القشيب

. . . . .

خلِ البكا يا صاحبي والاسى   الليل لا يقصيه عنك النحيب
لا خير في الشيء مضى وقته   ما لقتيل حاجة بالطبيب

« ايليا ابو ماضي »

. . . . .

احبابنا

أحبابنا ، وُضع العشاء   وآلكم بالانتظار
وقلوبهم لغيابكم   تشوى علَى جمرات نار
قوموا نعود الى الحمى   قد آذنت شمس النهار

أحبابنا ، سكتت علَى الاغصان اصوات البلابل
واتى الرعاة من الجبال — ولم يعد في الحقل عامل
قوموا نعود الى الحمى   عاد الجميع الى المنازل

أحبابنا ، نجم المسا   حدج الوجود بعين غاضب
وبدا الهلال كحاجب   من فوق تلك العين قاطب
قوموا نسير الى الحمى   فالليل قد ارخى الذوائب

أحبابنا ، ما ذي المضاجع — في العراء علَى الجلامد ؟
كيف الهجوع بموضع   لا فرش فيه ولا وسائد؟
قوموا نسير الى الحمى   قوموا ، نسيم الليل بارد

مالي اراكم ساكتين — فلا مجير ولا مشير ؟
أو لست بعد حبيبكم ؟   أو مات ذياك الشعور ؟
قوموا نسير الى الحمى   بحياتكم قوموا نسير !

ناح الحمام علَى الغصون — فهاج احزاني الحمام
أرشيد ، لا تلم الاحبة — لا يحق لك الملام
أحباب قلبك هوّموا   كف الحمام لهم فناموا

ناموا ؟ نعم ناموا وليـ   ـل رقادهم ليلٌ طويل
ناموا نعم فدع العويل — فليس ينفعك العويل
واصبر فلست اخال أنّ — العهدَ بينكما يطول

يا من يحن الى المرابع — ان رجعت الى المرابع
موّن عيونك ما استطعـ   ـت من البحار وانت راجع
فلسوف يدهشك المصاب — وسوف تعوزك المدامع

(النجاءي)   « الشاعر القروي »

طرائف عربية

*****

حدث ابان بن تغلب قال — « خرجت في طلب الكلأ فانتهيت الى ماء من مياه بني كلب · واذا اعرابي عَلَى ذلك الماء ومعه كتاب منشور يقرؤه عليهم وجعل يتوعدهم · فقالت له امه وهي في خبائها ، وكانت مقعدة كبراً — ويلك ! ادعني من اساطيرك · لا تحمل عقوبتك عَلَى من لم يحمل عليك · ولا تتطاول عَلَى من لم يتطاول عليك · فانك لا تدري ما تقربك اليه حوادث الدهور · ولعل من صيَّرك الى هذا اليوم ان يصير غيرك مثله غداً فينتقم منك اكثر مما انتقمت منه · فاكفف عما استمع عنك · ألم تسمع قول الشاعر

« لا تعاد الفقير علك ان — تركع يوماً والدهر قد رفعه »

· · · · ·

قال الاصمعي — « رأيت اعرابياً قد بلغ ماية وعشرين سنة فقلت له — ما اطال عمرك ؟ فقال — تركت الحسد فبقيت · »

· · · · ·

جاء رجل الى حاجب معاوية وقال له — « قل للخليفة — عَلَى الباب اخوك لابيك وامك · »

فدخل الحاجب وابلغ معاوية · فقال له — « ما اعرف هذا الاخ · أذن له · »

فدخل · فقال له معاوية — « اي الاخوة انت ؟ »

فقال — « ابن آدم وحواء »

فقال معاوية — « يا غلام اعطه درهماً · »

فقال الرجل — « أتعطي اخاك لابيك وامك درهماً ؟ · »

فقال معاوية — « لو اعطيت كل اخ لي من آدم وحواء ما بلغ اليك هذا »

· · · · ·

سئل اعرابي عن امرأته وكان حديث عهد بتزويج فقال — هي أفنان اثلة وجنى نحلة ومس زملة · وكأنني آيب في كل ساعة من غيبة · وسئلت هي عنه فقالت — أفنان الجنة وحسن الروضة وطيب الحياة في نعمة مقيمة ·

· · · · ·

شكا رجل الى جعفر الصادق اذية جاره · فقال له — اصبر عليه · فقال — اذا صبرت ينسبني الى الذل · فاجابه جعفر — انما الذليل من ظلم ·

· · · · ·

بعث النعمان بن امرىء القيس الى نسوة من خير العرب شرفاً ونسباً منهن فاطمة بنت الخرشب الانمارية وهي ام الربيع بن زياد ، والى قيلة بنت الحسحاس الاسدية وهي ام خالد بن صخر بن الشريد ، والى تماضر بنت الشريد السلمية وهي ام قيس بن زهير ، والى الرواع النمرية وهي ام يزيد بن الصعق · فلما

اجتمعن عنده قال

– اني قد أخبرت بكن واردت ان اخطب اليكن · فاخبرنني عن بناتكن ·

فقالت فاطمة – عندي الفتخاء العجزاء ، اصفى من الماء ، وارق من الهواء ، واحسن من السماء ·

وقالت تماضر – عندي منتهى الوصاف ، دفية اللحاف ، قليلة الخلاف

وقالت الرواع – عندي الحلوة الجهمة ، لم تلدها أمة

وقالت قيلة – عندي ما يجمع صفاتهن · وفي ابنتي ما ليس في بناتهن

فتزوج اليهن جميعاً · فلما اهدين اليه دخل على ابنة الانمارية فقال – ما اوصتك به امك · فقالت – قالت عطري جلدك واطيعي زوجك واجعلي الماء آخر طيبك ·

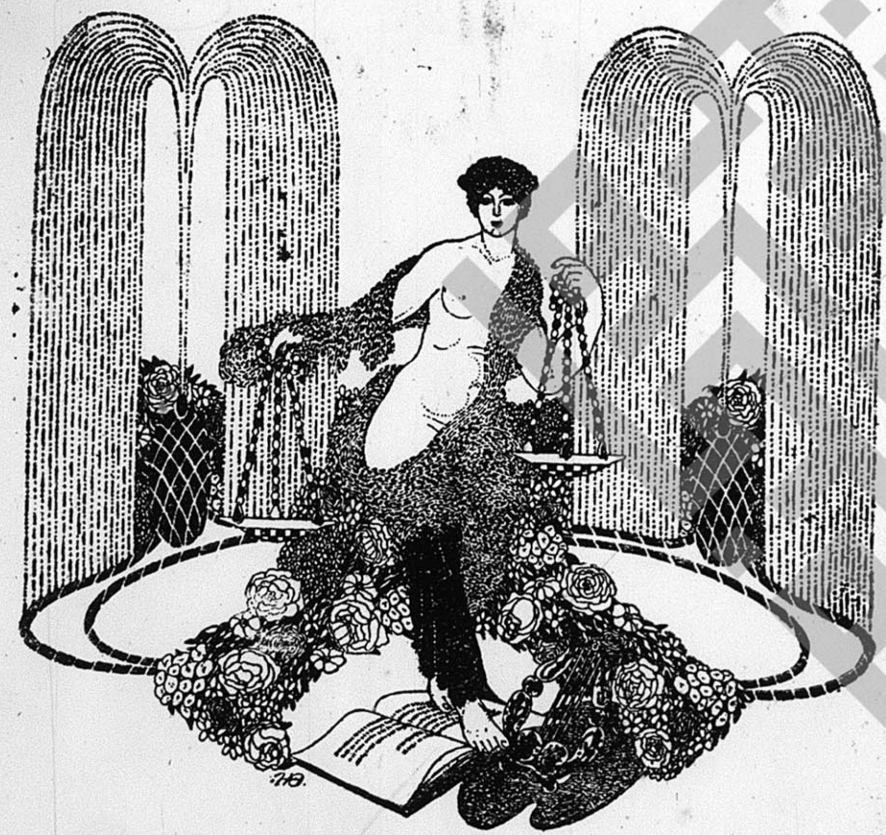
ثم دخل على ابنة السلمية فقال – ما اوصتك به امك ؟ فقالت – قالت لي لا تجلسي بالفناء ولا تكثري من المراء واعلمي ان اطيب الطيب الماء

ثم دخل على ابنة النمرية فقال – ما اوصتك به امك ؟ فقالت – قالت لي لا تطاوعي زوجك فتمليه ولا تعاصيه فتشكيه · واصدقيه الصفاء ، واجعلي آخر طيبك الماء ·

ثم دخل على ابنة الاسدية فقال – ما اوصتك به امك ؟ فقالت – قالت لي ادني سترك واكرمي زوجك واجتنبي الاباء واستنظفي بالماء

· · · · ·

باب الانتقاد





ديار السعداء — المصور ب. كلن

الرشيديات (١)

لخائيل نعيمه

* * * * *

ما احوجنا الى تذكير شعرائنا من حين الى حين بان الشعر فن وبانه من الفنون الجميلة! هذه الحقيقة الوضعية التي تكاد تملها الآذان من كثرة ترديدها لم تختمر بعد بها عقول الكثيرين من شعرائنا الذين لا يزالون يحسبون كل ما ارتبط من الكلام بوزن وقافية شعراً · ويدهشنا ان نرى صاحب « الرشيديات » من هذه الفئة اذ قد طالعنا له بضع قصائد قبل صدور ديوانه جعلتنا نتوسم فيه شاعرية تفوق ما عودنا اياه معسكر كبير من شعراء القرن الماضي واول القرن الحاضر · ولسنا لنقول بان مطالعتنا ديوانه قد قضت علَى آمالنا به ، ولكننا لا يسعنا الا ان نأسف اذ نصادف بين «الرشيديات» من القصائد والمقاطع ما نفضل لو ان الشاعر دفنه بين اوراقه القديمة الى الابد · وكأننا به أبى الا ان يجيء ديوانه في ١٥٣ صفحة لذلك حشاه بكل شاردة وواردة مما نخجل ان ندعوه شعراً ·

(١) ديوان الرشيديات — الجزء الاول — نظم رشيد سليم خوري · سان باولو سنة ١٩١٦

هكذا قد اباح له ذوقه ان يتحفنا تحت اسم الشعر بمقاطيع كهذه —

« انست بلقاء السيد عزيز نادر وهو في احدى سياحاته الى لبنان فارتجلت فيه هذين البيتين —

« قمر تقاسمت القلوب غرامه   وارقها منه جمال باهر
لا غرو ان يشرى بكل حشاشة   ان الجمال هو «العزيز النادر»

« وقلت في حفلة زفاف —

« هنا القمران قد لاحا وضاءت   نجوم السعد وازداد الهناء
اجيبوا يا كرام فلست ادري   اهذي الارض ام هذي اسماء »

ولو كنا من الحضور لما تمالكنا عن ان نجيبه — « هذي جهنم »

امثال هذه المقاطع تشغل فسحة ليست بزهيدة في الديوان وكلها تذكارات حوادث خصوصية جرت للشاعر لا ندري ماذا دفعه الى نشرها ليعلمنا ماذا قاله في عماد مولود صديقه فلان · او عند لقآء اخيه فلان · او جواباً علَى كتاب من ابن عم او ابنة عمة · او مداعبة لممثل في رواية وما اشبه · هناك « قصيدة » كاملة — مثلاً — يطلعنا فيها الشاعر بكل جد واهمية علَى ان صديقاً له اسمه حنا اهداه تفاحة · « موردة الخدين · يفضح اقمار السماء وجهها الاسنى » · وبعد ان « غالب فيها شهوة البطن » الذي كان يناديه « ألا سنّ السنّا » غلب ظنه انه بعد غروب الشمس سيغيبها ، في ظلمة البطن خشية من الناس يوماً ان يقولوا بها جنّاً · وهناك « قصيدة اخرى يعتذر فيها الشاعر لابيه عن عدم ذهابه الى البيت في عطلة عيد الفصح

ويلمح له عن حاجته الى دراهم ·

ومن هذا النوع من « الشعر » في الديوان مقاطع كثيرة يتبرأ الشعر منها اذ ليست سوى مداعبات وتلاعب بالاسماء من باب « التضمين» « كالعزيز النادر » في البيت الذي اوردناه سابقاً · فلم يستنكف الشاعر من ان يحوك بيتين او اكثر حول كل من الاسماء الآتية —

قيصر ووحيد · شاكر وفوءاد · منصور ووردة · شمس · الياس · رشيد · نوري · بهيج · جميل · اطلس · وسواها ليطرب الشاعر بمثل هذه « التضمينات » اصحابه واصدقاءه في حفلات عماد او زفاف ولكن ما همنا نحن من هذه الامور ؟ نحن نفتش عن شعر في ديوان شعري واذا وجد البعض مسحة شعرية في هذه المقاطع التي نتكلم عنها فاين آثار الشعر في تلك « التواريخ » التي لم يأسف صاحب « الرشيديات » عَلَى الساعات الطوال التي صرفها في تنسيقها؟ وحياة الحق ان قلبنا لينقبض اسفاً لما نتصوَّر ناظم « البلبل الساكت » جالساً في وحدته ، يقدح زناد القريحة ، ويفرك الجبهة ، ويجمع قيمة هذا الحرف الى قيمة ذلك ليحصل بعد ان يشعر بالتهاب في دماغه عَلَى هذه الكلمات التي اذا جمعتها اتت باربعة ارقام ١٩٠٤ والتي يتحفنا بها تحت عنوان « تاريخ زفاف صديق سنة ١٩٠٤ ··· »

ما انشد الخدن الرشيد موءرخاً   « منصور» فاز « بوردة » لن تذبلا»

وما قولكم بهذا التاريخ —

فدم ملكاً عَلَى الادباء ارخ   يزينك من بديع الرغد تاج؟

هل تظنونه تاريخ افتتاح مصر او الاندلس ، او سقوط القسطنطينية ، او اكتشاف اميركا ، او سقوط نابوليون ، او نشوب الحرب الحاضرة ؟— كلا ! فهو ليس الا تدوين سنة « زفاف كاتب اديب » · واذا كان الشاعر حريصاً الى هذا الحد عَلَى تاريخ زفاف صديقه فلا غروَ اذا رأيناه يوءرخ « ميلاد طفل » لذلك الصديق —

واذ قد انعم المولى علينا   به ارختُ ذا من فضل ربي

ولكي لا ينسى هذا العالم المطبوع عَلَى النسيان بان لمى — ابنة بعض اصدقاء الشاعر — ولدت سنة ١٩١٦ مسيحية ايد الشاعر تلك الحادثة المهمة في حياة الكون بهذين البيتين —

يا سائلاً اي ابنة   في ثغرها احلى لمى

واي عام ولدت   ارخ وقل ثغر لمى

او لكي يعرف القاصي والداني ان « رودولف » غمس في جرن المعمودية ثلاثاً سنة ١٩١٦ قضى الشاعر اكثر من ساعة ليتحفنا بهذه الآية الشعرية

لا شيء اولى بتاريخ وابدع من   عماد رودولف والثالوث باركه

والغرابة التي لا غرابة بعدها في هذه التواريخ (ولا نعني ما ورد منها في « الرشيديات » فقط بل كل التواريخ الشعرية العربية) بقطع النظر عن سخافة مواضيعها بوجه الاجمال انها لا تظهر الا مصحوبة بارقام تنبيك عن السنة المقصودة · فاذا كان لا بدَّ من اعلامنا بان فلاناً ولد او تعمد او تزوج او مات سنة ١٩١٠ فلماذا لا يكتفي الشاعر بقوله لنا ان صديقه فلاناً ولد

او عمد او تزوج او انتقل الى رحمته تعالى سنة ١٩١٠ فيريحنا بذلك من درس الابجدية وجمع الحروف ؟ (ونشكر الله ان المجانين بيننا — الذين يعتنون بجمع هذه الاحرف — قد انقرضوا او كادوا)

لنسأل مرة ثانية — ما القصد من هذه التواريخ « الشعرية » ؟ هي ليست في نظرنا سوى ضرب من الالعاب « البهلوانية » ونحن نجل كل من يدّعي انه من عباد آلهة الشعر عن ان يكون « بهلواناً » ونرى ان داء « البهلوانية » الشعرية لا يزال متفشياً بين شعرائنا لذلك احببنا ان نطيل عنه الكلام ولو في طريق العرض . وقد بلغ هذا الجنون من بعض من لا يخجلون ان يحسبوا انفسهم من سكان « بارناس » ان نظم قصيدة من عشرة ابيات صدر كل بيت منها تاريخ وعجزه تاريخ ... ومن هذا القبيل نعد المعجزات الشعرية كمعجزات اليازجي الكبير في الشعر المنقط والخالي من التنقيط والذي فيه حرف منقط يتلوه حرف مهمل الخ . وقد حان لنا ان ننقي الشعر العربي من هذه التوافه والمعجزات « البهلوانية » . واذ جرنا القلم الى هذا الحد في حديثنا عن « الرشيديات » فلا نشاء ان يشتم احد مما قلنا اننا نضع صاحب هذا الديوان في مصاف الذين لا يعرفون من الشعر سوى تنسيق التواريخ والتلاعب بالاسماء . فنحن لم نأخذ عليه ميله الى هذه السخافات الشعرية الا غيرة على موهبته التي تتقد في اكثر صفحات ديوانه من ان يصرفها وراء ما يجب ان ندفنه الى الابد من الاساليب الرثة والاوهام البالية . ونفضل ان نحسب وجود مثل هذه المقاطيع العارية من كل حلة شعرية في الديوان « غلطة مطبعية »

او من بعض «هفوات الصبا» اذ لا نقدر ان الشاعر الذي نبذ كثيراً من قشور الاسلاف وتمرد على كثير من قوانينهم يعود في المستقبل ويجهد قريحته في نظم التواريخ وما شاكلها .

لو ضربنا كشحاً عن بعض ما دعوناه « هفوات الصبا » في الديوان لما وسعنا الا ان نصدق الناظم في قوله انك اذا قرأت في ديوانه غزلاً فقل بعد مغازلة . او حماسة فقل بعد معركة . او رثاء فقل في بكاء . او شكوى فقل في بلوى .»

نصدقه لما يقول غزلاً —

ودموعي ولظى شوقي لو   قطرت في آلة جرت قطار

ونصدقه لما نسمعه يشكو —

خيم اليأس حول نفسي حتى   لا ارى في الحياة غير الشقاء
كل شيء عندي ظلام كأني   ناظر من زجاجة سوداء

بل ينقبض القلب معنا لما نطالع هذه الابيات البديعة في تركيبها ووصفها لحالة الشاعر النفسانية —

اجس يد الرجاء فلا   احس لقلبه نبضا
هموم في نواحي الصدر   يزحم بعضها بعضا
فقلبي صار مستشفى   وكل جوارحي مرضى

ونشعر معه بالنعرة الوطنية اذ نرى نفسه تتألم من معاملة البرازيليين لابناء جلدته —

ويزيد في الطنبور اني بين ناس كالبقر
لا يفهمون من الحياة سوى البطالة والبطر
لكن بينهم رجل الزمان تظل « تور كو » محتقر

ونضحك معه اذ نسمعه يصف حياة معلمي المدارس عندنا الذين يرجو الناس من كل منهم ان يكون الهاً محيطاً بكل شيء —

كم اتوا يطلبون منه دواءً وهو يشكو الاوجاع خمسين شكلا
ويرومون حكمه في الدعاوي وهو لم يدرس الشريعة أصلا

واذا حدث واخذ العود ليوقع على اوتاره بعض ما في نفسه قالوا انه ليس « اهلاً للعلم »

ويشوقنا كذلك في الديوان بعض تشابيه مبتكرة غنية بالالوان والرسوم· من هذه قوله واصفاً لبنان المكلل بالثلوج بينا سفحه لا يزال مخضراً مزهراً —

فكأنه شيخ يتوق الى الصبا وشبابه ملقى على اقدمه

وكذلك وصفه لاغصان الحور يلاعبها النسيم —

كان غصونها دبق عليه عصافير ترف ولا تطير

وكذلك —

وغادرت قلبي من جوى الحب خالياً فقلبي بصدري ناسك ساكن كهفا

ومما يدهشنا ان القريحة التي تقدر ان تجود بمثل هذه الرسوم الشعرية لا تأبى ان تلجأ الى التشابيه التي انتنت من كثرة تردادها · كتشبيه الوجه بالقمر والشمس · وفي الديوان اكثر من ثلاثين بيتاً في قصائد مختلفة ورد

فيها هذا التشبيه · ويا حبذا لو ندري ماالذي يدفع شعراءنا الى تشبيه كل وجه يشاؤون مدحه بالقمر ! اوجه القمر البارد المتجمد ، المخدد بالاودية ، المشوه بالاكام والجبال ، ام استدارته ? ام نوره المستعار من الشمس ? ام هو المثل البارج — « زلق بو مخيبر — زلقوا الكل » ?

لكن في « الرشيديات» قصيدة واحدة تكاد ان تشفع بكل ما في الديوان من المساوىء والضعف · ونعني بها « البلبل الساكت» · هنا يقص علينا الشاعر بعبارة رقيقة حكاية بلبل · « تائه في المساء يطلب ملجأ والغيوم السوداء تمطر ثلجاً » · قذفته العواصف الى بيت الشاعر فحنّ عليه وادفأه واطعمه مخاطباً اياه —

« بلبل الروض ما خلقت صموتا بلبل الروض قد اطلت السكوتا
عد فغرد ....»

وبعد ان آنس البلبل الطريد ، الساكت وغنى وجاء الصباح وهدأت العاصفة قبّل الشاعر زائره الفجائي قبلة الوداع واطلقه متمنياً لو يجعل البلبل سكناه معه —

«... حبذا لو رغبت معنا الاقامة انما الحر لا يقيد حراً »

هذه ليست حكاية عصفور صغير حقير بل حكاية روح الشاعر وقد داهمتها انواء الحياة فتاهت في فضاء الكون تطلب لها ملجأ ومجيراً · اسكتتها العاصفة لكن عذوبة الصوت لا تزال كامنة فيها · هي تأبى ان تحتمي بمن لا يفهم نزعاتها الخفية الدائمة · وكأن الغريزة قادتها الى اخت من اخواتها

المنفردات ، الغريبات عن كثير و كثيرين في هذا العالم ، الى روح حرة ، ابية مثلها . واذ التقت بشبيهتها اطمأنت فغنت . و كأني بالشاعر يبحث بين ابناء جنسه عن افراد قليلين يدركون تغريدة روحه ويتوسل اليهم ان يعاملوه كما عامل هو البلبل . « انما الحر لا يقيد حراً »

لسنا بناسين ان ناظم « الرشيديات » لا يزال في شرخ شبابه وان مواهبه الشعرية لم تبلغ حدودها بعد ولا تزال تتلمس طريقها كما في ظلمة . لكن « البلبل الساكت » ومثالها تنبئنا عن قوة في صدر الشاعر لنا امل ان نراها قد تجسمت في الاجزاء الآتية من « الرشيديات »

هناك بعض امور ثانوية في الديوان نود ان نلفت نظر الناظم اليها . ومنها استعماله ضمير المتكلم كان الديوان قصة يرويها هو على القارئين — « قلت مرتجلاً . وقلت معتذراً . ورأيت كذا فقلت كذا . وانبأني صديق . وكتبت الى صديق » . فهذا الاسلوب مستهجن . نستهجن كذلك اكثاره من ذكر اسماء اصدقائه واقاربه واهل بيته وعلاقاته الخصوصية معهم التي لا تهمنا والتي تكاد تجعل الديوان كتاريخ حياة

كان يجب ان يصرف على طبع الديوان وترتيبه اكثر مما صرف من العناية حتى لا نطالع عنوان القصيدة في آخر صفحة ١٠١ — مثلاً — ومطلعها في اول صفحة ١٠٢ وان يترك ولو فسحة سطر بين القصيدة والاخرى كي لا يختلط السابق باللاحق .

اما الفصل الذي جاء هزلياً — وربما عن اهمال او غير قصد — في الديوان

هو انك لما تنتهي من قرائته تصل الى « باب الاعلانات » كان الديوان كله مقسم الى ابواب والاعلانات باب منها ! أما آن لنا ان نفصل بين الشعر وبين « البضائع المستجلبة من مصادرها الاصلية » و « المقانق الشهية » و « المحلات التي شهرتها تغني عن ذكرها » ؟

ميخائيل نعيمه

مطبوعات جديدة ارسلت الى الادارة

« النحلة » — مجلة روائية تصدر في بونس ايرس الارجنتين مرتين في الشهر لصاحبها شبلي ناصر رزق . بدل اشتراكها ٢٥ فرنكاً .

« النسر » — مجلة نصف شهرية تصدر في توكومان الارجنتين . لصاحبها سمعان الحاماتي . اشتراكها السنوي ٢٥ فرنكاً

« الجلاء » — مجلة نصف شهرية تصدر في بونس ايرس الارجنتين . لصاحبها هارون ستون . اكثر مباحثها اسرائيلية وطنية . ومن مساعيها التوفيق بين الطائفة الاسرائيلية السورية وبقية طوائفنا وحسم تنازع المبادىء والخلافات السياسية والدينية الضاربة اطنابها بينها وبينهم . بدل اشتراك المجلة السنوي عشرون فرنكاً .



المعتمد بن عباد ملك اشبيلية

نبذة تاريخية

*****

« ولكل أمة أجل، فاذا جاء أجلهم لا
يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »
القرآن الشريف

١

ارعني سمعك ايها القارى، فالحديث ذو شجون ، واحنِ رأسك احتراماً فان الكلام هنا عن اموات عظام . اسمع الخبر واستوعب العبر .

كان في الاندلس ممالك عربية انمحقت وامجاد ضاعت تحت الردم . ولم يبقَ منها سوى آثار مبعثرة هنا وهنالك بين الخرائب كلآلىء عقد مفروط تنبىء عن عظمة بنائيها وتحدث باخبارهم . وانها لتتكلم بفم كل قصر تهدم ، وكل مسجدٍ عُريَ من حلة الاسلام ، وبلسان كل رواق تغيرت ألوانه وشوهت نقوشه ، وقبة مالت قناطرها ، ونوفرة جفَّ قلبها وخرس ماوءها . تنظر الى من حولها شاكية باكية متنهدة مرددة اخبار مجد العرب

الذين حلوا هنا زمناً ثم ساروا وامعنوا واختفوا في طيات الدهر ولن يرجعوا حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً .

ومن اين للعرب ان تُبعث قواهم القديمة ويزهر مجدهم الاثيل فيعودون الى الاندلس يتفقدون معالمها ويرمون فيها آثارهم الدارسة ويرفعون انصابهم الشامخة ويكونون رسل تمدن الى الغرب ينقلون اليه مدنية جديدة من الشرق كما فعلوا قديماً . انهم الان نائمون ولم يأتِ دورهم بعد في امتلاك العالم . والى ان يدور دولاب الدهر بهم فيخفض غيرهم ويرفعهم تظل ارواح اجدادهم المطرودين من اسبانيا تزور في سكون الليل معاهدهم في سهول الاندلس وتتفقد ما استعجم من آثارها وتبكي علَى امجادها الضائعة — امجاد ٨٠٠ سنة في الاندلس كانت في تاريخ العرب احدى واحاته الزاهرة في الصحراء الواسعة .

تهيم اشباح اولئك العظام ليلاً علَى غير هدى بين خرائب وانقاض كانت علَى ايامهم زاهية زاهرة وتظل حتى الصباح في حيرة تترقب سماع تهاليل الموءذنين وهتاف المسبحين المكبرين فلا تسمع غير طنين اجراس الليل تقرع عليهم دقة الحزن .

وكأني اسمع في الليل العميق خطوات بطيئة متثاقلة تبتلع وقعها الظلمة وتنتهي بصاحبها عند اسوار مدريد . وكأني ارى شبحاً يقف هنالك مطرقاً ثم يستل سيفه غاضباً مزمجراً ولا يزال يضرب به صخرة في السور حتى ينكسر فيجلس هنالك عاجزاً وقد ستر رأسه بطرف ردائه حزيناً ينادي الكتائب ،

التي عبرت معه البحر من المغرب فشتتت جحافل لذريق ، ولا من مجيب . فيلوي ذاك الشبح — شبح طارق بن زياد نحو البحر منهزماً امام غارة الصباح ولم يعتد الهزيمة قبلاً .

وكأني ارى عبد الرحمن الداخل صقر قريش الذي عبر البحر وقطع القفر ومصّر المصر ذا امتعاض يتأوه اسفاً تحت نخلة عتيقة قرب حائط قديم من حيطان الزهراء يخاطبها بابياته الشهيرة ثم يرسل طرفه فيما حوله فلا يرى من صحبه الاشاوس الا قبوراً قديمة استعجمت ولا يجد من عزه غير قناطر تهدمت فيعود الهوينا نحو قبره ليستر فيه استياءه وحزنه

وكأني بالحكم يخطر في دهاليز الحمراء مندهشاً لما يراه فيها من التغيير يتلمس باليد ما سمح الاسبان ببقائه من افانين نقوشها وبديع بنائها ويبحث عن آثار المجد الضائع في مقاصير تجمهرت فيها ارواح سواه من الباكين على ايام لم ترجع وعمر لم ينفع .

وكأني أرى في القصر الزاهي سلطاناً جالساً يتأمل مبانيه النفيسة على ضوء القمر معجباً بنفسه وقد تجلى في وجهه جلال الاسلام وفي عينيه عظمة العرب يقاطع سكينة افكاره تدفق الماء في فوارات المرمر ورنة الاوتار في احضان الجواري وتغني القيان باشعار رقيقة من نظمه وتباري الشعراء في حضرته بالارتجال والانشاد . وهو بين ذلك حزين الطرف كأنه يعلم بما خبأه له القدر من الذل بعد الملك والشقاء بعد الهناء ويفهم ان مصيبته ليست سوى مقدمة لمصيبة امة جمعاء فيحسو الكأس اثر الكأس ليغرق في لجتها

شيطان احزانه ويعكف على الحسان لينسى بينهن خيانة اخدانه . هذا سلطان راح شهيد اوطانه . فطل يا ليل ، ودعه يتمتع في خرائب قصره ببعض ما فقده من النعم في حياته . وابعد ايها الصباح ولا تطرد خيال ملك اشبيلية من مكمنه . خلِ المعتمد بن عباد هنيهة بين آثار آبائه واجداده . دعه ينزه نفسه قليلاً بين غابات الزيتون على ضفة الوادي ويتنشق ارج الرياض المزينة جبل الشرف . واذا قرأ عليك قصيدة من أسرياته الشجية فابكِ معه مواساة ان لم تبكِ شفقة ورقة . واحتفظ بدموعه فان دموع الملوك ملوك الدموع .

ارعني سمعك قليلاً ايها القارىء فالحديث ذو شجون واحنِ رأسك احتراماً فالكلام يُساق هنا عن اموات عظام كانوا في الدهر زينة الدهر . اسمع فاني محدثك عن المعتمد بن عباد ملك اشبيلية الذي كان ملكاً فذل ، ولكن ذل الاسر لم يخمد فيه عز الملك ، وغمرة الهوان لم تطفىء في قلبه نار الحب .

. . . . .

في اوائل الجيل الحادي عشر انقرضت الدولة الاموية من الاندلس فانتثر سلك الخلافة وتفرقت المملكة الواسعة شذر مذر فتقاسمها ملوك طوائف كانوا امراء ورؤساء فانتزوا على الجهات التي بيدهم بعد انقراض الامويين واقتسموا خطتها وتغلب بعضهم على بعض واستقل اخيراً بامرها منهم ملوك استفحل امرهم وعظم شأنهم فاصبحت الاندلس مقسومة الى ممالك صغيرة

يحكم كلاً منها ملك مستقل بامره : من هؤلاء بنو جهور ملوك قرطبة وابن حبوس ملك غرناطة وبنو الافطس ملوك بطليوس وبنو صمادح ملوك المرية وبنو ذي النون ملوك طليطله وبنو هود ملوك سرقسطه وبنو رزين اصحاب السهلة وبنو الفهري اصحاب البونت وغيرهم . عَلَى ان اعظمهم شأناً دون معارض بنو عباد ملوك اشبيلية الذين تركوا بعدهم في التاريخ اثراً يذكر وقد اغدق المؤرخون والشعراء عليهم الذكر الحسن فقال ابن خاقان يصفهم في كتابه « مطمح الانفس »

— « هذه بقية منتهاها في لخم ومرتماها الى منفخر ضخم . وجدهم المنذر ابن ماء السماء ، ومطلعهم من جو تلك السماء . وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر وتنفس منهم عن أعبق الزهر . وعمروا ربع الملك وامروا بالحياة وبالهلك ومعتمدهم كان اجود املاك . واحد نيرات تلك الافلاك » وقال الشاعر فيهم

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الاولاد

واصل بني عباد من سلالة المناذرة . ولما هاجر العرب الى الاندلس دخلها من اجدادهم اثنان كانا قبلاً في جند حمص . ولما اطفأ الدهر مصباح ملك بني امية استقل بالملك في اشبيلية القاضي اسمعيل بن عباد ومنه تبتدىء دولتهم وتنتهي بالمعتمد الذي نحن بصدده .

ولد المعتمد في مدينة باجه سنة ٤٣١ هجرية . ولما كان بعد شابا ولاَّه ابوه المعتضد شلب وهي مدينة جميلة في غربي الاندلس (من مدن البورتوغال



المعتمد بن عباد — لجبران خليل جبران

الان · ويسميها القوم جنة البورتوغال لجمالها) فكانت هذه المدينة الفيحاء الزاهرة ملعب شبابه ومألف احبابه فأخذ عن اهلها الرقة في الشعر والحذاقة في الادب · ثم توفي ابوه المعتضد فتبوأ عرش الملك في اشبيلية والدهر باسمه · واشتهر بالجود والاقدام واكرام الادباء فقال عنه ابن القطاع في كتابه لمح الملح « اندى ملوك الاندلس راحة وارحبهم ساحة واعظمهم ثمادا وارفعهم عمادا · ولذلك كانت حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء وقبلة الامال ومألف الفضل حتى انه لم يجتمع بباب احد من الملوك من اعيان الشعراء وافاضل الادباء ما كان يجتمع ببابه ..» وقال فيه الفتح بن خاقان في كتابه قلادة العقيان « ملك قمع العدا وجمع البأس والندى وطلع على الدنيا بدر هدى · لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه آونة يراعه وآونة سنانه · وكانت ايامه مواسم وثغور بره بواسم ... وكانت حضرته مطمحاً للهمم ومسرحاً لآمال الامم وموقفاً لكل كمي ومقذفاً لذي انف حمي فطلع في سمائه كل نجم متقد وكل ذي فهم منتقد فاصبحت حضرته ميداناً لرهان الاذهان وغاية لرمي هدف البيان ... واصبح عصره اجمل عصر وغدا مصره اكمل مصر ..»

كانت حياة المعتمد منذ صباه في شلب حتى موته منفياً في افريقيا حياة زاهرة رائعة مفعمة بالحب والهيام والندى والبأس والاقدام والحزن والدموع والفتك والمكائد — ولا غرو فهي حياة ملك شاعر · وانه ليصعب على الكاتب ان يستوعب اخبارها في مجلد ضخم فلذلك اتوخى الاختصار في سرد الاهم من وقائعها لافي بالمطلوب في صفحات قلائل ·

ولست لاحدد ملك المعتمد واخطط اقطاراً دانت له واصف عمرانها واحوالها . وانما يكفينا من ذلك ان نعلم انه كان ذا ملك واسع ، وان سائر ملوك الطوائف في الاندلس كانت تخشاه وتقدمه ، وان كثيراً من الملوك والامراء كانوا يقبلون اقدامه ، وانه لم يخلُ من اعداء كادوا له وسعوا في الفتك بنيه اولاً ثم به كما سيلي وان بلاطه كان « ملقى الرجال وموسم الشعراء » ويكفي ان نذكر اسماء ابن زيدون وابن عمار وعبد الجليل بن وهبون وابن اللبانة وسواهم لنرى ان اعظم شعراء الاندلس كانوا منقطعين الى المعتمد دون سواه .

لا يسعُ من يتكلم عن حياة هذا السلطان الذي ملك اشبيلية ٢٢ عاماً سوى ان يذكر شخصين كانا العاملين الاكبرين في حياته . اولهما الشاعر ابن عمار وزير ابيه ثم وزيره ورفيق صباه في شلب وصديقه المصطفى الذي انقلب عليه فيما بعد . والثاني الجارية اعتماد الملقبة بالرميكية التي ارسلتها الصدف الى المعتمد فتزوجها وقاسمها عز الملك ثم شاطرته ذل النفي ودفنت الى جنبه في قبر حقير بافريقيا .

كان المعتمد سيء الحظ في صداقته ولكنه كان حسن الطالع في حبه . فقد ظفر بكنز يُحسد عليه هو هذه الرميكية الشهيرة ام اولاده وشريكته في الملك والاسر . اما كيفية ظفره بها فكانت على هذه الصورة

« ركب المعتمد النهر ومعه وزيره ابن عمار وقد زردت الريح الماء فقال ابن عباد لابن عمار — أجز

صنع الريح من الماء زرد

فاطال ابن عمار التفكر . فقالت امرأة من الغسالات

أي درع لقتال لو جمد

فتعجب المعتمد من حسن ما اتت به مع عجز ابن عمار ونظر اليها فاذا هي صورة حسنة . فسألها — أذات زوج انت ؟ فقالت — لا . فتزوجها (١) »

ويقال ان هذه القصة جرت له وهو لا يزال ولي العهد في حياة ابيه المعتضد . فاشترى الجارية من سيدها رميك بن حجاج وافرط في الميل اليها وغلبت عليه . واسمها اعتماد فاختار لنفسه لما ولي الملك لقباً يناسب اسمها (٢)

وكان للرميكية تأثير شديد في حياة المعتمد . فقد كانت تساعده في تدبير شوءون الملك وتخفف عنه ثقل المعضلات بذكائها . وكان يجلها ويحبها ولا يأتي امراً دون رضاها . ويقضي كل ما تطلبه ولو كان عسير المنال . يروى انها رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن في القرب وهنَّ رافعات عن سوقهنَّ في الطين فقالت — اشتهي ان افعل انا وجواريَّ مثل هوءلاء النساء . فامر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصيَّر الجميع طيناً في القصر وجعل لها قرباً وحبالاً من ابريسم فخرجت وجواريها تخوض في ذلك الطين (٣)

من يقرأ هذه القصة لا يتمالك من العجب حين يدري ان هذه الامرأة

(١) المقري (٢) ابن خلكان (٣) المقري

اللطيفة الكثيرة الدلال والتطلب هي هي التي تبعت سيدها وزوجها الى النفي وقاسمته مرارة حياة مزهقة في السجن حتى ماتت

اما ابن عمار فقصته طويلة · تعرّف الى المعتمد يوم كان في شلب فاعجب به واصطفاه خليلاً · وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره خامل الذكر وضيع النسب ولكنه مع ذلك لطيف المعشر سريع الخاطر متوقد الذهن طموح الى الترقي وفي نفسه آمال · وزد عَلَى ذلك انه كان شاعراً من الطبقة الاولى · فاوصله المعتمد الى ابيه المعتضد فمدحه بقصيدة شهيرة محفوظة في المجاميع الشعرية مطلعها

ادر الزجاجة فالنسيم قد انبرى   والنجم قد صرف العنان عن السرى

فاعجب به المعتضد ورقاه حتى صار له وزيراً · ولما تولى الملك المعتمد ابقاه في رتبته وانهضه جليساً وسميراً وقدمه وزيراً ومشيراً ثم خلع عليه خاتم الملك وقدمه اميراً وكان قد اتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً

اصبح بن عباد وزير المعتمد الاعظم يقاسمه السلطة والفخار · وظلت صداقتهما ثابتة اكيدة تربط حياتهما بعرى الولاء مدة خمس وعشرين سنة منذ لقائهما في شلب حتى سنة ١٠٧٨ مسيحية حين هوى الوزير من أوج مجده بعد ان وثب عَلَى مالك رقه ومستوجب حمده ومستحقه ·

كان ابن عمار يتطلب الرفعة والسوءدد غير مبالٍ اية طريق يسلك شأن كل طموح حقير الاصل · ولكنه كسواه من امثاله سقط من اعلى السلم فتحطم · وقد اختلف الموءرخون في امره فمنهم من قال انه لم يخلص الود

قط للمعتمد بل كان يتظاهر بذلك ويراوغ ويداجي توصلاً الى نيل مآربه وتحقيقاً لمطامعه · فلما بدت له سانحة انتهزها وقد ظنّ انه بلغ ما يريد فانتقض عَلَى المعتمد وقلب له ظهر المجن واظهر ما كانت تكن نفسه الخبيثة · وكان المعتمد قد عهد اليه بقيادة جيش وارسله الى مرسية ليستولي عليها ويضمها الى املاك بني عباد · فدخل ابن عمار المدينة في مهرجان حافل باهر لا يليق الا بالملوك واعلن هنالك عصيانه عَلَى المعتمد واستقلاله بالامر · فأوجس المعتمد شراً وخشي توالي الخيانات وكان فقد ابنه الاكبر في قرطبة بخيانة منذ ثلاث سنوات · وتطوّح ابن عمار في ذم المعتمد غير خائف منه · وكيف يخاف وتفصله عنه مسافة ٢٥٠ ميلاً · وتبادل الاثنان رسائل اقل ما يقال فيها انها عدائية · ولم يكتفِ ابن عمار بذلك بل هجا المعتمد وذكر اباه المعتضد ذكراً قبيحاً في اشعاره وعرّض باقدس شيء لديه الا وهو العرض فتناول الرميكية وابناءها بمثالبه · فمن ذلك قوله فيها من قصيدة

تخيرتها من بنات الهجانِ   رميكية لا تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير النجاد   لئيم النجارين عماً وخالا

وقال ايضاً يهجو المعتمد واباه

مما يقبح عندي ذكر اندلسٍ   اسماء معتضدٍ فيها ومعتمدِ
القاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

تمادى ابن عمار كل هذا التمادي آمناً عَلَى نفسه من ان تطوله يد المعتمد · ولكن القدر شاء ايقافه عند حد ومجازاته عَلَى خيانته · فتمرّدت الجنود

عليه في مرسية لتأخر اعطياتهم وعزموا عَلَى ان يسلموا ابن عمار الى المعتمد · ففرَّ منهم واراد ان يرجع الى المعتمد فخاف ان يوبقه غدره فبعث اليه بقصيدة يستغفر بها فرقَّ له المعتمد واشفق وعزم عَلَى الصفح عنه واجابه بابيات توءكد له حسن النية · ولكن ابن عمار ازداد نفوراً ولحق بملوك الاندلس يغريهم بالمعتمد · وما زال يتنقل من بلاط الى بلاط وقد نبت به الارض حتى وقع في قبضة ابن سهيل فزجه في حصن شقوره · وما برح المعتمد يلح عَلَى ابن سهيل حتى اشترى منه هذا الحصن بما فيه وأمر بتسيير ابن عمار اليه · فدخل هذا الوزير المنكود الحظ الى قرطبة عَلَى قتب مكبلاً بالسلاسل والعيون ترمقه كأنها سهام ترشقه · وزجَّ في السجن في قصر المعتمد · وكان له كثير من الاصدقاء في البلاط فعملوا عَلَى استنزال عفو المعتمد عليه · وتابع ابن عمار ارسال قصائده الرقيقة الى سيده يستغفر بها ويتوسل وكاد ينجح لولا شموخه وكثرة اعدائه · فانه لما يئس من عفو المعتمد التمس ان يسمح له بورقتين ودواة فكتب عَلَى ورقة قصيدة بليغة موءثرة يذكر المعتمد بخدماته ويستغفره · فرقَّ له لدى قراءتها واوشك ان يطلق سراحه لولا ان ابن عمار استعمل الورقة الثانية لكتابة رسالة الى صديق له يبشره بانه سيعود الى سابق عزه ويصبح القوة العظمى في البلاط وينكل باعدائه ويسيطر عَلَى المعتمد · فاتصل الخبر بالمعتمد فاستشاط غيظاً ولم يتمالك نفسه فاخذ بيده طبرزيناً كان الاذفونش ملك الاسبان قد اهداه الى ابن عمار فاهداه هو الى المعتمد · ودخل السجن · فلما سمع ابن عمار فتح الباب ورأى سيده استبشر بالعفو وسقط عَلَى اقدامه

يقبلها ولكنه خرَّ صريعاً في تلك الساعة بضربة فأس فلقت رأسه من يد سيده وصديقه الاسبق ·

بعد هذا الانتقام الفظيع من ابن عمار قلب الدهر ظهر المجن للمعتمد · وادلهمَّ جو الاندلس بغيوم وويلات جديدة قصفت رعودها · وتحرَّك نجم المعتمد ليهوي من أوج عزه · «البقية في العدد القادم»

قد خُطَّ في سجل السماوات الحكم بالاعدام عَلَى الاكاذيب كلها · وهي تدنو مبطئة او مسرعة من اجلها المرسوم · (كارلايل)

طوبى لمن شبَّ في شبابه وشاخ في اوانه (بوشكين)

الشبيبة تحيا بالمستقبل ، والشيخوخة بالماضي · اما الحاضر فلا احد يعيش به ·

اذا أردت ان تعظم فمت (ابو الاسود)

— توطئة —

رواية جلال الدين من الروايات التي احدثت ضجة في تاريخ الادب الارمني تجاوزته الى اوربا · وموءلفها آكوب ملك أكوبيان المنتحل لنفسه اسم «رافي» يُعد من اعظم كتاب الامة الارمنية ويقر له نقادو الغرب باستحقاقه ان يذكر مع مصاف مشاهير الكتاب في العالم · وهو ممن يعزى اليهم الفضل في رفع شأن الاداب الارمنية والوطنية الارمنية حتى صارت جديرة بالذكر والاهتمام ·

وقد رأينا نقل روايته هذه الى العربية لا لجدارتها وجمالها فقط ، بل لان بها روحاً حماسية حاول الموءلف بثها في امته لينهض بها من حضيض خمولها وذلها · والامة السورية الآن محتاجة الى من يبث بها هذه الروح نفسها ، وحالتها تشابه حال الامة الارمنية التاعسة · فعسى ان يكون لهذه الرواية وقع حسن وتأثير في النفوس ، فتحرك القلوب وتنشط الهمم وتفيد قراءها غير فائدة التسلية وقطع الوقت ·

«المعرّب»

رواية جلال الدين

١

اوشك شهر ايار من سنة ١٨٧٧ ان ينتهي · في ذلك الحين تراءت للعين عَلَى أحْد سهول أخبك (١) من خلال ضباب الصباح خيام مشدودة من البسط السوداء مضروبة عَلَى شكل دائرة ، الواحدة بجانب الاخرى وقد بقي ما بينها في الوسط ساحة متسعة · اذا أطلّ الناظر عَلَى هذا المشهد من بعيد يخال لاول وهلة انها ليست سوى خيام رعاة قد انتجعوا تلك البقعة فوجدوا فيها مرعى خصيباً لقطعانهم · غير ان الشمس التي اخذت بالارتفاع فوق تلك السهول والهضاب فبددت جيش الضباب المغشي التلال بدأت ترفع الستار عن حقيقة ذا المشهد · فكلما ارتفعت قليلاً في الافق انجلى المشهد للناظر اكثر من ذي قبل واتضحت الخيام العديدة العابسة · وفي هيئتها ما يقول للعقل ان هذا المشهد الغريب معسكر محاربين لا مأوى رعاة ·

أجل تلك هي الحقيقة · فقد كانت الرماح مركوزة امام الخيام تزين اطرافها ريشات سوداء · وما بين المضارب اناس مدججون بالسلاح يخطرون ذهاباً واياباً وهم في هياج مبهم وفروغ صبر · والى جانب المعسكر افراس ترعى العشب مسرجة مهيأة للارتحال

(١) أخبك — احدى مقاطعات بلاد الارمن في تركيا تلاصق حدود العجم

امام احدى الخيام — وهي خيمة تمتاز عَلَى رفيقاتها بعظمتها وابهتها — علم أحمر مركوز · نُقش عَلَى زواياه الاربع بالعربية اسماء الخلفآء الاولين ابوبكر وعمر وعثمان وعلي · وفي وسطه رسم يدٍ بيضاء رمز القوة الخفية التي تسيّر هذا الجيش تحت حمايتها الى ساحة القتال ·

وما حول الخيمة جمهور من الرجال اجتمعوا بين داخلين اليها وخارجين منها بلا انقطاع · وفي داخلها شيخ ربع القامة ناري العينين شائب اللحية جالس عَلَى وسادة وقد تردى بثياب بيضاء تستره من قمة رأسه الى أخمص قدميه · يرمز بذلك الى انه قد تزمل باكفانه وهو لم يزل في قيد الحياة (هذا العمل يُعد في الشرق من دلائل الشرف الاسمى وتضحية النفس) ومن منطقته العريضة تتدلى الى الجانب الايمن سبحة كبيرة · ومقابلها في الجانب الايسر خنجر اعقف وزوجان من الطبنجات يختفي طرفهما في الرداء الملقى عَلَى كتف الشيخ بلا اعتناء · وعَلَى رأس الشيخ عمامة بيضاء مطرزة بالآيات العربية · وكان متربعاً في جلسته وعَلَى ركبتيه سيفٌ دمشقي ومنظره يدل عَلَى انه رجل رفيع المنزلة في الدين وخادم لله شديد الغيرة وداعٍ همام يكرز بالحرب والجهاد وجندي بسيط كسواه

ألا انه الشيخ والامام والقائد لهذا الجيش

جلس في الزاوية الامامية المكرمة من الخيمة جلوس امير او قائد والى جانبيه يمنةً ويساراً رهط من اغوات الاكراد بسلاحهم القديم يدل تقربهم من الشيخ عَلَى انهم ليسوا كسواهم من عامة الناس وانما هم روساء الجماهير

المجتمعة عَلَى الساحة وبين الخيام · وكانوا جالسين صامتين كأن عَلَى روءوسهم الطير لا يجسرون ان ينبسوا ببنت شفة الا اذا سألهم الشيخ امراً

وكان الى جانب الشيخ كشكول فيه أوراق صغيرة مطوية عَلَى شكل مثلث تشبه التعاويذ التي يفرقها المشعوذون عَلَى الناس لجلب الحب والسعادة · ولكن هذه لم تكُ في الحقيقة عَلَى شيء من السحر ، بل كل ما فيها آيات من القرآن لها قوة عَلَى صون الانسان من كل شدة وتجربة وشر

وكان مدخل الخيمة مفتوحاً · فاذا دخل أحد من الجمهور اليها ركع عَلَى ركبتيه قبل وصوله الى عتبتها وسجد الى الارض ثم زحف عَلَى ركبتيه نحو الشيخ زحفاً حتى اذا وصل اليه طرح سلاحه عند قدميه وقبّل يده فيأخذ الشيخ ورقة من الكشكول ويعطيه اياها فيأخذها الرجل ويعود زحفاً عَلَى الركبتين غير مدير ظهره ولا ناهض حتى يخرج من الخيمة · وكان القوم يدخلون واحداً بعد واحد ويتممون الفريضة ذاتها ويخرجون · ومن طرح سلاحه منهم امام الشيخ فذاك قد تعهد عَلَى نفسه تضحية نفسه في سبيل الجهاد آخذاً مقابلها التعويذة المباركة لتقيه سلاح العدو · ولهذا كان كل فرد منهم يلف الورقة في خرقة عندما يخرج من خيمة الشيخ ثم يخيطها في كمه الايمن ·

ولما انتهى الشيخ من توزيع التعاويذ قرع الطبل فهرعت الجماعة زرافات تحمل اسلحتها من كل الجهات الى خيمة القائد المهاب · ولما التأم عقدهم خرج الشيخ وبسط يده اليمنى فوق المتجندين مباركاً اياهم دون كلام

فرصف القوم سروجاً طرحوها بعضها فوق بعض فتألف من ذلك مرتفع · فصعد الشيخ عليه ممسكاً بيده علماً أحمر بدل العصا التي اعتاد خطباء الزمان القديم التوكوء عليها حين الخطابة · مثل هذه الوقفة وقف رسول الاسلام النبي العربي العظيم قديماً في الصحراء فوق مرتفع موءلف من اقتاب الابل ليلقي عَلَى الناس كلمات وحيه المنزل

حمد الشيخ واثنى ومجّد الله ورسوله وخلفاءه الراشدين ابا بكر وعمر وعثمان وعلياً · ثم تفوّه بهذه الكلمات ·

« يا ابناء الدين ! يدعوكم نبينا صلى الله عليه وسلم الى الاقدام عَلَى عمل مقدس هو الجهاد ضد اعداء الدين الذين تمردوا واخذوا يهرقون دماء خدام الله · قولوا لعنة الله عليهم اجمعين ·

لا تتركوا لليأس والشك والخوف الى قلوبكم سبيلاً · فالخوف لم لم يخلق الا لغير عبيد الله · سيرسل الله قوةً من عنده تشدد ايديكم فتسقط اعداوءكم من ضربات اسيافكم كالسنابل الناضجة تحت منجل الحاصد · تتلقون بايديكم رصاصات العدو دون ان توءذيكم فتعيدونها الى نحور الاعداء · وكأني بحائط من حديد لا ترونه باعينكم يحميكم من كل هجمات المعتدين · وكأني بالملائكة تقاتل عنكم بين ايديكم فتهلك كل معانديكم · كل هذا سيرسله اليكم الله والنبي · الله اكبر · لا اله الا الله

ألا واعلموا ان الكفار جميعاً مرذولون امام الله · وما يخص الكفار من متاع وارواح وعيال يدفعه الله اليكم · اخربوا واحرقوا وخذوا اموال

من تقتلون وانهبوا ما شئتم حتى تشبع نفوسكم · فالله لا يمنع جنوده المجاهدين عن سفك دماء العدو والاستيلاء عَلَى ماله ·

هيهات ان يسقط منكم الا من طرح الشيطان الريب في قلبه او من بردت نفسه · ان الجبان لمكروه امام الله ، ولكن الهارب من القتال لاكره منه كثيراً واحقر في عيني الله · فلا تسمحوا للعدو بان يرى اقفيتكم · ومن يجاهد في سبيل الله يموت شهيداً · اما اذا فرّ احدكم من ساحة القتال ففي تلك الساعة يصبّ الله الغضب في قلب امرأته فتقف في مدخل الخباء وتستقبله بهذه الكلمات — « اذهب من هنا ! ارحل عن وجهي ! فلست لي بزوج · أين جراحك ؟ اين اصحابك ؟ وكيف رجعت وحدك ؟ بعداً لك وسحقاً ! ليس من يدنس سلاحه بزوج لي ·» ما أقسى غضب المرأة وسخطها ولكن غضب الله اشد هولاً وقساوة ···

واعلموا ان دماء اعداء الدين ترضي الله · وانه عزّ وجل ليتقبل الدخان المتصاعد من بيوت الكفار المحترقة كما يتقبل دخان الذبائح · وان ذلك الدخان ليتصاعد الى امام العرش تواً · فاحرقوا ما استطعتم واضربوا الضربات القاضية ما بقيت في ايديكم قوى · والله يعطيكم مقابل كل نقطة دم تريقونها حورية في الجنان ·

واذا امرأة او عذراء من سبي الكفار حسنت في اعينكم واردتم اتخاذها سرية ، أو اذا اعجبكم غلام منهم واردتم اتخاذه للخدمة فالله يسمح لكم بذلك بشرط ان يعتنقوا الاسلام · واذا تمنعوا وظلوا مصرين عَلَى ضلالهم

فاقتلوهم . فالله يمنع اتحاد المؤمنين والكفار . اما الشيوخ فاقتلوهم ولا ترحموهم فان كفرهم شديد التأصل فيهم متغلغل في عظامهم

اقتسموا غنائمكم بالحق ولا يطمعنّ احد منكم بحصة الاخر . ولا تنسوا ان تفرزوا من الغنيمة نصيباً لله فان ملائكته يقاتلون عنكم ويدرأون عنكم الاخطار . واعتنوا بالمرضى والجرحى منكم فانكم كلكم اخوان يجمعكم هذا اللواء المقدس »

وظل الشيخ يتكلم زمناً من مرتفعه . وتطرق في كلامه الى القول ان روح الله تجسم في الاسلام ، وان عَلَى الاسلام ان يستأصل اضاليل الكفار ويمحق ادناسهم . وكان صوته عالياً حاداً ، وكلامه فصيحاً ذا وقع في النفوس كمن اتاه الوحي . وقد يصعب عَلَى رجل غيره ان يؤثر في نفوس سامعيه هذا التأثير ، وهم جماعة متوحشة ، فيدفعها الى سفك الدماء الا اذا كان مثله شديد التعصب يتخذ الدين حجة له ويردد من القرآن آيات تعظم الجهاد وتبيح اهراق الدماء في الحرب المقدسة .

ولما ختم خطبته وجه كلمته الى الجمع وقال — « الله يطلب من عبيده أقساماً صادقة . فليقسم كل منكم ايماناً مغلظة عَلَى صدق عهوده . »

فتحركت الجماعة كرجل واحد ورفع كل واحد حجراً من الارض ورمى به في منتصف الساحة فتكونت من ذلك هضبة صغيرة ارتفعت شاهداً عَلَى الاقسام المعظمة وشق الفضاء هتاف الوف من الناس يرددون صورة القسم منها هذه الكلمات .

« نحتم عَلَى انفسنا الطلاق ان لم نخدم هذا الجهاد المقدس حق الخدمة »

ولما انتهى الجمع من فريضة القسم اعاد الشيخ تلاوة البركة وانحدر من مرتفعه ودخل الخيمة .

وبعد قليل تصاعد صوت الطبول فتراكض القوم الى خيلهم ونقضوا خيامهم . ولم تمضِ ساعات قليلة حتى كانت الفرقة مستعدة للارتحال فتقدم الشيخ وامتطى فرسه وحمل بيده علَماً احمر وسار في الطليعة فتحركت الفرقة كلها في اثره .

وكان وجه الشيخ مغطى بقناع ابيض لئلا تتمتع اعين الكفار برؤية قداسته . وسار وراء هذا الرجل الهائل جيش يبلغ عدده بضعة الاف من الاكراد تتبعه في المؤخرة صفوف من الجمال تحمل الذخيرة والمدافع الصغيرة

هكذا ابتدأت حملة الشيخ جلال الدين عَلَى الارمن في تركيا

٢

بعد ان مضى اسبوع كامل عَلَى ما ذكرنا كان رجل سائراً في الطريق المؤدية من وان الى احبك وقد قطع منخفض خوشاب واقترب من عقبة تشوخا كادن وحيداً مسرعاً يحث السير

والسائر شاب يبلغ الثلاثين من عمره . اصفر الوجه اسمره لا نبات بعارضه بارز الوجنتين تستر شفتاه الرقيقتان المصفرتان صفين من الاسنان البيضاء اللامعة . ويتدلى شعره الجعد من قمة رأسه فيستر قذاله ورقبته الملوحة

بنار الشمس · وجه جميل بالرغم من تنافر ملامحه تزينه امائر العزم والشجاعة والاقدام والاستهزاء بالموت · وقامته نحيلة عريضة الاكتاف · وهو مرتد بثياب كردية ومدجج بالسلاح الكامل · يخيل لمن يراه ان البندقية القديمة الطراز والسيف والرمح والترس والمسدسات التي يحملها لهي اقسام جسده لا تفارقه ·

وكان يكف عن المسير احياناً ويتفرس في ما حوله عابساً مفكراً حائراً · ولم يكن ما يفعله نتيجة اعجابه بجمال تلك الهضاب الخضراء فان قلبه لم يكن يتلهى بجمال الطبيعة بل كان الدعي الى تأمله وحيرته انه رأى تلك الجبال خاوية خالية لا حس فيها ولا حركة · وهو قد مرّ في هذه الجبال نفسها منذ عشرة ايام فوجدها كما يعهدها عامرة المراعي بالقطعان تغطي اخبية الرعاة أوديتها وتدوي انغام مزامرهم في جهاتها مختلطة باغاريد الطيور عند الصباح · في ذلك الحين كان العابر يشاهد الفلاح الارمني في كل موقع طرف عَلَى المروج والمستويات الجبلية مهتماً بالفلاحة والزراعة مترنماً باناشيده المعروفة مشتركاً مع الطبيعة في تعبها المستمر المبهج · اما الان فقد اقفرت كل هذه الاماكن كأنها قد توقفت فجأة عن عملية التنفس والحياة · حتى الطريق التي يمشي عليها هذا العابر اصبحت خالية بعد ان كانت تمر عليها القوافل تباعاً · فكيف حدث هذا الانقلاب ؟ لا بدّ من وجود يدٍ شريرة رهيبة محقت كل آثار الحياة وحوّلت هذه المعالم الآهلة الى صحراء وخرائب ·

استولى عَلَى المسافر هول وخشية لدى هذه الافكار · فعلا الاصفرار وجهه الملوّح بالشمس فاصبح كالنحاس لوناً · عَلَى ان ذلك لم يكن لخوف او جبانة فان قلبه الحديدي لم يكن يعرف خوفاً ، بل لغضب متدفق ثار في نفسه

وكانت الطريق تنحدر من حيث كان المسافر واقفاً الى الحضيض ملتفة متعرجة · فتراءى له من فوق عن بعد اطراف اسنة قد اختفى حاملوها في معارج الطريق · ثم لما انحدر قليلاً تبين شرذمة من الفرسان تسير فلما رأته توقفت تنتظر هذا المسافر الوحيد الذي كان لا يزال بعيداً عنها

علم المسافر عَلَى الفور ان هؤلاء الفرسان اكراد · وثبت له انهم عَلَى غاية من الطرب اذ سمعهم يغنون ويهزجون كالابطال العائدين من الوغى يرافق النصر اعلامهم · وكان يعرف حق المعرفة عادات هؤلاء البرابرة الاكراد ولذلك تصاعد الدم الى رأسه متدفقاً اذ شاهد قطعة قماش تتماوج في الفضاء عَلَى طرف احد الرماح وقد استعملها القوم كراية · ولم تكن تلك الراية سوى سروال امرأة رفعه هؤلاء الهمج عَلَى طرف السنان برهاناً عَلَى قيامهم بعمل عظيم بعيد عن الرحمة والشرف ·

فكظم المسافر غيظه المستعر واقترب من الشرذمة متكلفاً الابتسام وحياها بالكردية قائلاً

— سهلت طريقكم · فاجابه بعضهم

— وطريقك · من اين قادم ·

فاجاب وقد توكأ عَلَى رمحه

— من وان ·

— ماذا حدث ؟ واين تقصد ؟

— انا ذاهب الى باش قلعه ومعي رسالة من الباشا الى المدير ·

فتبادل الاكراد النظرات كأنهم يسألون بعضهم بعضاً ما يفعلون · فبادرهم المسافر بالسؤال

— وانتم الى اين ذاهبون ؟ فقال احدُهم

—نحن زاحفون عَلَى الكفار · فقد دعانا الشيخ الى الجهاد لنمحق اثر الكافرين ·

فقال المسافر الشاب ضاحكاً

— يلوح لي ان اول ما فعلتموه اظهار انموذج من شجاعتكم في هذه الخرقة الحقيرة ·

— ليست هذه سوى صيدة صغيرة ظفرنا بها في الطريق · فقد احرق بعض اخواننا قرية ارمنية فهربت نساوءها الى الجبال المجاورة ···

فقاطعه الشاب قائلاً بحدة

— وفي هربهن من اخوانكم وقعن في ايديكم ·

فسأله اذ ذاك رجل منهم وقد شك فيه ·

— من اي الاماكن انت ؟

— انا من جبال سيبان من قبيلة خلداران ·

قال الشاب هذه الكلمات وقد كيَّف لفظه حسب لهجة تلك المواطن

— ألا يهب رجال عشيرتك للزحف عَلَى الكفار ؟

— سيهبون الى ذلك عندما يدعوهم شيخهم · فالخلدارانيون لا ينضمون الى قبائل راڤنداوشيشككنار وبلباس التي تسير بزعامة الشيخ جلال الدين

فوقعت كلمات الشاب الابية ولهجته المترفعة موقعاً أليماً من هذه الشرذمة التي كانت من قبيلة راڤندا · ولكن لم يجسر احد أن يعارض رسولاً يحمل أمر الباشا الى مدير باش قلعه

فغير الشاب المسافر الحديث وقال بلهجة اقرب الى اللطف

— ما اقبح هذه الاماكن · انا فيها لاول مرة ولا ارى شجراً ولا قرى ولا مراعي · اكاد أموت من الجوع ولا استطيع الظفر بقوت اسد به رمقي

فقالوا له — كل ما ذكرته قد كان هنا سابقاً · كان الارمن يقطنون هذه النواحي ولكن قبيلة خاركين اجتازت هذه الاماكن بالامس فخربتها وتركتها بلقعاً ·

فازداد وجه الشاب ادلهماماً ولكنه اجهد نفسه وتظاهر انه غير مبالٍ وقال

— يلوح لي اذن انكم لن تظفروا بشيء في هذه النواحي

— الله كريم · لا بدَّ من ان نظفر بصيد قبل ان نصل الى بيازيد

— وفقكم الله ····

قال الشاب هذا وعزم عَلَى متابعة مسيره · ولكن كردياً من الشرذمة استوقفه وتناول من كيس بجانب سرجه خبزاً وجبناً وقدمهما اليه قائلاً

— قد قلت انك جائع · ومن هنا الى باش قلعه مسافة بعيدة

فشكره المسافر وابتعدت الشرذمة عنه في طريقها

الان عرف الشاب ما حلَّ بهذه الجهات وادرك سر خلوها وخرابها وانجلى له ما كان يزعج باله منذ هنيهة

فرمى الى جانب الطريق ما اعطاه الكردي من القوت وسار في طريقه لم يذق طعاماً نهاراً بكامله ولكنه لم يشعر بالجوع اذا كان في شغلٍ شاغل عنه — كان في حالة مضنكة معذبة تنسي صاحبها أمر الجوع والطعام

٣

آذنت الشمس بالغروب لما وصل المسافر الشاب الى حيث تشعبت الطريق منهوك القوى خائر العزيمة · فرأى امامه طريقين تؤدي يمناهما الى باش قلعه واليسرى الى دير القديس باردوخيموس · فاختار طريق الدير

لم يشاهد الشاب في كل حياته غروباً متناهياً في الجمال كهذا الغروب الذي شاهده الان امامه وقد تبطنت الغيوم بفضة الشمس · ولم يتنفس قط هواءً منعشاً مثل النسيم الذي اخذ يهب عليه الان نقياً لطيفاً منعشاً · غير انه لم يبالِ بهذا كله ولم يعره التفاتاً لانه لم يكن له حينئذٍ ما يربط عالمه الداخلي بالعالم الخارجي · فقد كان أفرغ كل همه في السير حثيثاً كأنَّ قوة خفية دفعته الى الامام دون وقوف ·

أخذت غباشير الغروب تدلهم تدريجاً وتكاثفت الظلمة فبدأت نجوم الليل تشتعل متألقة ببهجة · وساد السكون في ذلك المحيط عَلَى غير اعتياد·

فقد كان من المعتاد سابقاً في هذه النواحي سماع ثغاء الخراف والنعاج الراجعة من المراعي ، وتجاوب الاصداء باصوات القطعان مما كان يمثل في الاذهان جمال حياة الرعيان ، ولكن هذا المساء خلا من كل صوت ، فساد السكون المميت عَلَى ذلك المحيط ·

مشى الشاب وقتاً طويلاً · وبينما هو سائر تراءت له فجأة من بعيد بقع نارية تجلت في ذلك الظلام · وكانت تمتد وتعظم تارة وتصغر اخرى ثم تثب متصاعدة الى العلو كأنها صفوف اعمدة نارية ، فتخمد حيناً وتسكن كأنها انطفأت ، ثم تندلع ألسنتها بقوة جديدة متدفقة في الجهات ·

فوقف مندهلاً لا يبدي حراكاً وقضى بضع دقائق يتأمل هذا المشهد الرائع يناجي نفسه قائلاً — ماذا حدث يا ترى ؟ وخطر له في اول الامر ان اكداس الحشيش تحترق في احدى القرى · ولكنه كان خبيراً بتلك الجهات خبرة جعلته يتحول عن هذا الفكر ، فانه كان يعلم ان الفلاحين لا يحصدون الحشيش في مثل هذا الوقت الباكر من الموسم · وكان يعرف حق المعرفة ان في ذلك المنخفض حيث تعيث النار قرى ومزارع ارمنية عديدة فلم يوجه خطاه الى قرية من تلك القرى اذ كان في حالة قريبة من الجمود تتجسم في مخيلته صور الهول والهلاك كأنه يراها في الحلم ويكاد يفقد صوابه ·

فحاد عن الطريق العمومية وصعد عَلَى احدى الاكمات القريبة المغطاة من جميع الجهات بالقصب والشجر والانجم · وهنالك نظر لاول مرة الى

السماء المزينة بالنجوم فعلم من سير الكواكب ان الليل قد انتصف · فجلس على صخرة ليستريح قليلاً وقد خانته قواه من الجوع والتعب · فظهرت له البقع النارية من قمة الاكمة أشد وضوحاً وجلاءً من ذي قبل · فتطلع اليها متفرساً دون اكتراث ·

وبينا هو جالس اتصل بسمعه من اسفل الاكمة اصوات مبهمة دلته على إن اناساً مارين هنالك يتحدثون حديثاً متقطعاً سمع منه بعضه

— الهي ! اين نذهب ؟

— هلمَّ ··· هلمَّ بنا نهرب · عسانا نجد مكاناً في احدى القرى ···

— ركبتاي ترتجفان ··· والطفل اوشك ان يموت ···

— هاتي الطفل ···

— لماذا قصرت يا بنية ؟ ···

— اماه ان الحجارة تدمي رجليَّ ···

ثم سكتت الاصوات

وبعد دقيقة سكينة سمع اصواتاً جديدة ·

— لا تزال القرية تحترق ··· ويلاه ما أشد هذه النار ···

— دعي عنك هذا واعتني بالاطفال يا زوجتي · حسبنا انا نجونا

— قد عاد الدم يسيل من جرحك ··· وها انت تكاد تسقط · ويلاه ! وازوجاه !

— لا بأس عليَّ ··· هي العصابة انحلت ·

الفنون



ايلول

الجزء الثاني السنـة الثالثة

AL-FUNOON

AN ARABIC REVIEW OF LITERATURE AND ARTS

Published Monthly by

Al-Funoon Publishing Co.

72 Trinity Place

New York

ANNUAL SUBSCRIPTION $5.00

AUGUST 1917

VOL. III NO. 1

"Entered as second class - matter June 16, 1916, at the Post Office at New York, New York, under the act of March 3, 1879"